المستحيل

مصطفى محمود



روايات الهلال

روائع القصص العالمي

روايات الهلال

Rewayat Al-Hilal

تصدر عن مؤسسة « دار الهلال »

رئيس التحرير: طاهر الطناحي

العــدد ٢٠٥ * يناير ١٩٦٦ * رمضــان ١٣٨٥

No. 205 — Janvier 1966

بيانات ادارية

ثمن العدد : فى الجمهورية العربية المتحدة والسودان ٨٠ مليما ـ عن الكميات المرسلة بالطائرة : فى سوريا ولبنان ١٠٠ قرش سورى لبنانى ـ فى الاردن والعراق ١٠٠ فلس

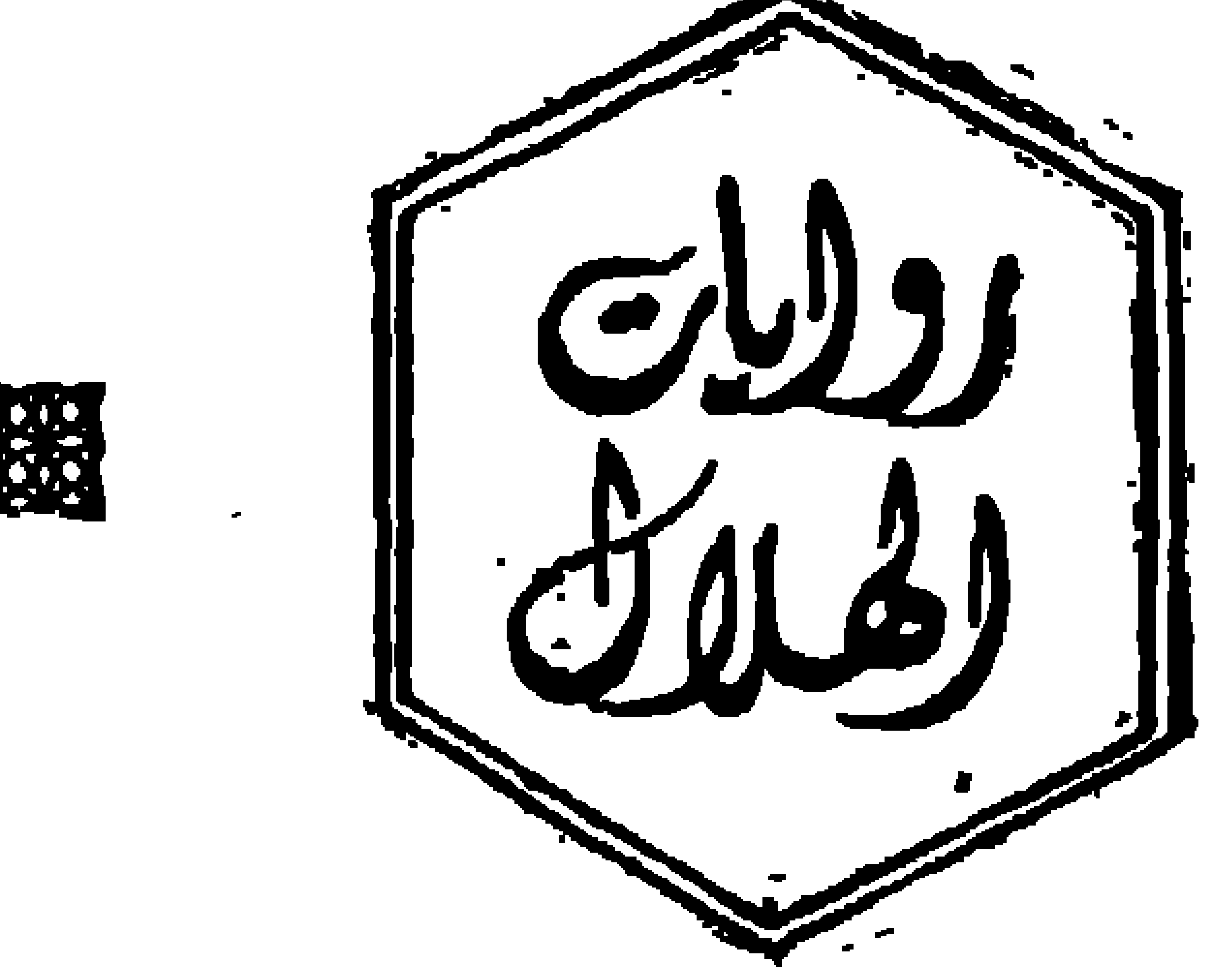
قيمة الاشتراك السنوى : (١٢ عددا) فى الجمهورية العربية المتحدة ٨٥ قرشا صاغا ـ فى السودان ٨٥ قرشا سودانيا ـ فى سوريا ولبنان ١٠٧٥ قرشا سوريا لبنانيا ـ فى بلاد اتحاد البريد العربى ١١٠ قروش ـ فى الامريكتين ٥ دولارات ـ فى سائر انحاء العالم ٣٠ شلنا

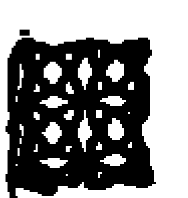
والاشتراكات تسدد لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى الجمهورية العربية المتحدة، والسودان بحوالة بريدية ـ وفى الخارج بتحويل مصرفى قابل الصرف فى القاهرة

سعر البيع للجمهور : قطر والبحــرين ٢٦ آنة ، عدن : ٢٣٠ سنتا ، السودان : ٩٠ مليما ، ليبيا : بنغازى ، طرابلس ١٢٠ مليما ، الجزائر ١٥٠ فرنكا ، المغرب ١٥٠ فرنكا

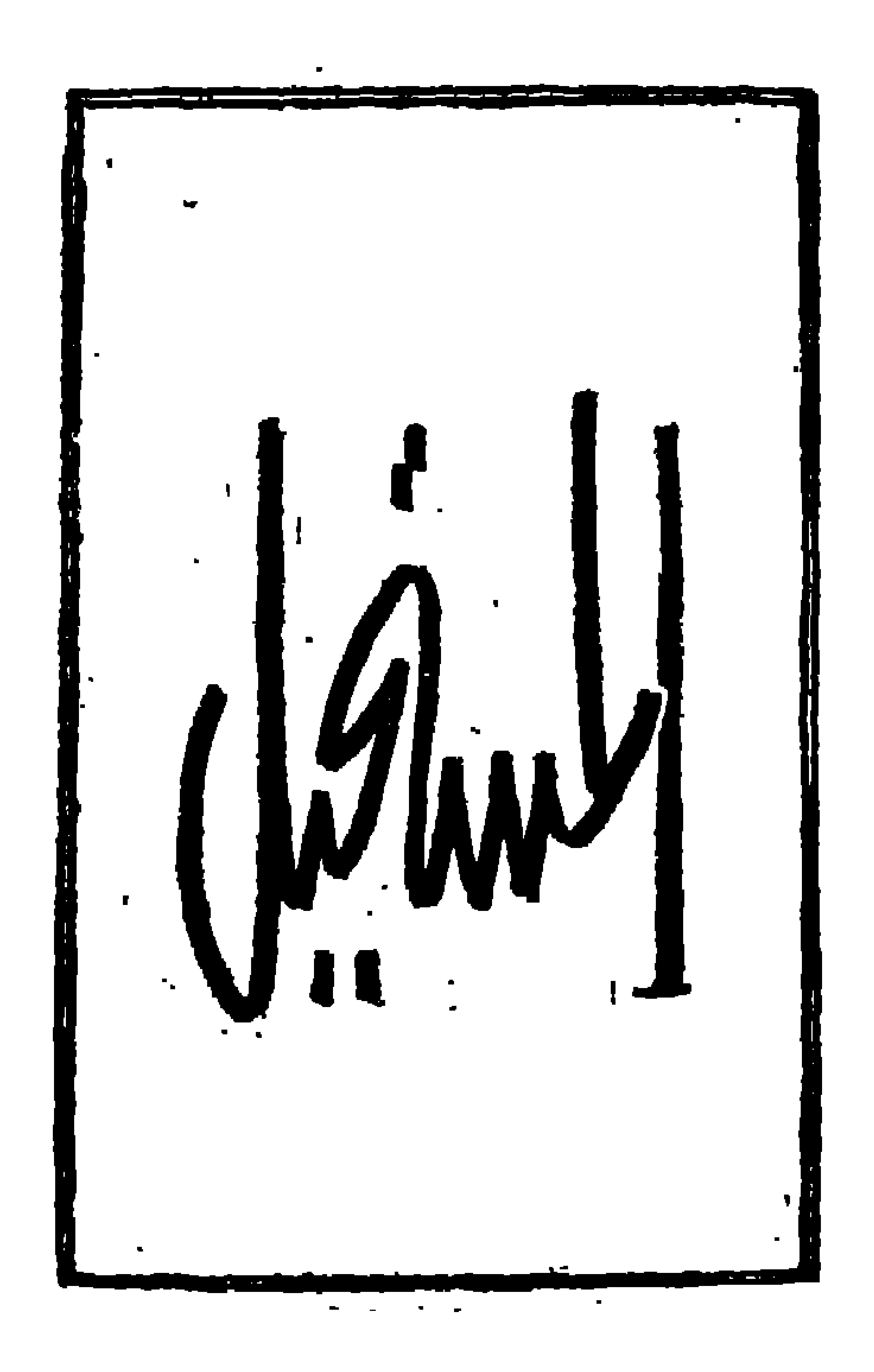
الادارة : دار الهلال ١٦ شارع محمد عزالعرب ـ القاهرة

تليفون : ٢٠٦١٠ « عشرة خطوط »





مجلة شهرية لنشر القصص العالمي



بقلم

مصطفى محمود

- ١ -

الساعة الواحدة بعد منتصف الليل ..

والبيت خال .. زوجتى عند أمها .. وأنا جالس وحدى .. أنصت الى صوت تنفسى البطىء فيخيل الىّ أنه صوت رجل آخر غريب لا أعرفه . ويدهمنى شعور ثقيل مر بالغربة ..

هذا أول يوم أجلس فيه مع نفسى .. وأنظر وجها لوجه فى حياتى وأتأملها .. أى حياة !!.. انى لم أعش أبدا ..

ليس فى حياتى يوم واحد أستطيع أن أقول انه كان يومى ..

انى لا أعيش .. ولكنى أتدحرج كحصاة كبيرة ثقيلة .. تسوقنى الوظيفة الى المكتب .. ويجرّنى الزواج الى البيت .. ويدفعنى الملل الى المقهى .. ويُلقى بى الجوع الى مائدة الطعام .. ويقهرنى الغيظ على التدخين .. ويقذف بى التعب الى الفراش ..

خمسة وعشرون عاما مرّت من عمرى كأنها لا شىء .. ازددت فى الوزن .. فى الطول .. فى العرض .. ولكنى لم أزدد فى الحياة ..

سنة بعد سنة وأنا أغوص فى أرض رخوة من الأوامر والواجبات والكلمات الغريبة .. الواجب ، الأصول ، تقاليد العائلة تحتّم ، مركز والدك لا يسمح ، سنّك لا تليق فيها كذا ، كرامتك ، ماذا

يقول الناس ، كيف تكون نظرة المجتمع الينا ، الاحترام ، الوقار يا أخي ..

حتى الجاكتة التي ألبسها كانت مسكينة مثلي بلا شخصية .. تطول وتقصر وتتسع حسب الموضة .. لا بارادتي ، ولا بارادة الترزي ، ولكن بارادة التقاليد ..

في وقت ما كنت أمسك في يدي منشة .. وفي وقت آخر كنت أمسك عصا .. وفي وقت ثالث كنت ألبس طربوشا .. والآن تضع لي زوجتي منديلا في كمي .. وتحرّم عليَّ لبس الطربوش .. كل هذه الأشياء كانت في الحقيقة تلبسني .. ولا ألبسها ..

والحياة كلها كانت تلبسني .. وحركاتي تلبسني .. وأنا أتضاءل سنة بعد سنة تحت الردم .. تحت ركام من كلمات كبيرة لزجة ..

أذكر هذا الآن وأنا أتلفت حولي في حياتي .. في الغرفات الخمس التي أسكنها .. انها غرفات غريبة .. ضيقة .. وسقفها منخفض .. وكل منها توصل الى الأخرى .. وهذا ليس ذوقي .. فأنا أحب الغرفات الواسعة ذات السقف العالي التي تفصلها الممرات والصالات . وهي غرفات تضربها الشمس من اليمين والشمال .. وأنا أحب الغرفات الرطبة الظليلة ..

ان البيت لا يبدو كأنه بيتي .. لقد اختاره والدي .. اختار المكان والأرض .. وبنى البيت حسب ارادته .. وفصّله حسب ذوقه .. واختار الأثاث قطعة قطعة..حتى الصورة الكبيرة .. النسخة المنقولة عن صورة الجيوكندا لدافنشي .. هو الذي اشتراها بنفسه وأهداها

الى بمناسبة زواجى ووضعها فى الصالون وقال انها مثال للذوق الرفيع فى الفن ..

وشعرت من البداية أنها صورة سخيفة قاتمة .. وأن دمها ثقيل .. ولكنى لم أتكلم .. لأنى رأيت من الواجب أن أكون مؤدبا .. وأن أجامل والدى فى هديته وأمتدح ذوقه .. فقلت له : « نعم .. أنت على حق .. انها رائعة » .. وقال فى زهو العارفين : « أنظر الى اليدين جيدا .. »

ونظرت الى اليدين جيدا .. فلم ألحظ شيئا .. وقال فى انتصار :

ــ انهما تبتسمان .. انظر .. هذا هو الاعجاز فى اللوحة .. ان الرسام رسم اليدين تبتسمان .. ان فى اللوحة كلها ابتسامة غير منظورة .. لقد كان الرسام يجلب معه كل يوم فرقة من العازفين تعزف للجيوكند وهو يرسمها ليدخل فى قلبها السعادة فتبتسم .. وأنت تحس بموسيقى وتسمعها .. وأنت ترى اليدين فى وضعهما الجميل المناسب ..

وأكبرت فى والدى هـذا الاحساس المرهف .. وان كنت لم ألحظ أنا أى شىء غير عادى فى الصورة ... وظللت أعيد على كل ضيف يزورنا هـذه القصيدة .. عن الابتسـامة غير المنظـورة .. والموسيقى .. والاعجاز فيهز رأسه تمـاما كمـا هززته ويقول فى آلية : يا سلام .. حقا انها رائعـة .. واليدان تبتسمان .. تماما .. يا سلام ..

ويروح بدوره يحكى القصة لصديق آخر ..

وظللت على اكبارى لوالدى .. وذوقه .. ونظرته العميقة الناقدة حتى قرأت مصادفة ، وفى مجلة قديمة ، كل هذا الكلام بالنص .. عن الابتسامة غير المنظورة والموسيقى فى اليـــدين .. والاعجاز .. الخ . الخ . ولا أدرى لماذا أحسست فى تلك اللحظة أن الحكاية كلها كلام فارغ متوارث روته الصحف وتناقله القراء .. كل قارىء يردده على أنه رأيه الخاص وذوقه . وظللت من يومها أشعر بالغيظ كلما رأيت الصورة مدلاة من الجدار فى غرفة الصالون .. وأشعر أنى لم أقل رأيى أبدا فيها .. وأنى عشت أردد كلمات غريبة عنى طول عمرى ..

وكان من عادة أبى أن يزورنا كل يوم جمعة ليطمئن على .. هكذا كان يقول .. ولكنى أعتقد الآن أنه كان يفعل هذا ليطمئن على نفسه .. ليرى أن أوامره ما زالت نافذة ، وملاحظاته ما زال معمولا بها .. الدواليب مغلقة بالمفــاتيح ، والمفرش المشمع موضوع على مائدة الطعام ، وأصيص النعناع فى البلكون ، والنوافذ كلها مفتوحة لتدخل الشـمس .. وأول شىء ينظر اليه عند دخوله هى النوافذ .. فاذا رأى الشيش مغلقا فتحه على مصراعيه وهو يصيح : « الشمس يابنى الشمس .. هذه شمس لا مثيل لها فى الدنيا .. انها أحسن دواء للروماتزم .. افتح الشباك عندك .. أنا قلت ألف مرة افتحوا كل الشبابيك .. »

ويتنهد فى الشمس يطرقع مفاصله .. وأبى كان دائما يشكو من الروماتزم . ولهذا كان يفتح الشبابيك فى بيوت أولاده ، فى كل

وقت ، وفى كل فصل من فصول السنة .. ولو استطاع لسقانا فنجانا من السلسلات ثلاث مرات فى اليوم كما كان يفعل

ولم يكن يجدى أن نحتج ونقول اننا أصحاء ، وأننا لسنا مرضى بالروماتزم .. فمعنى أن يكون أبى مريضا بالروماتزم ، أن نكون جميعا مرضى بالروماتزم .. فأبى مفتش تركى فيه كل أخلاق الأتراك ودماغهم الناشف .. وغرامهم بالأمر والنهى . وكان يعاملنا نحن أولاده كأننا تكية .. ويعيش حياته ويعيش لنا حياتنا أيضا ..

لم يحس واحد منا فى أية لحظة بأن له كيانا مستقلا .. أذكر حينما كنا صغارا أن أبى كان يحب الشاى فكنت أشرب معه الشاى .. وحينما تقدمت به السن ومرض بالضغط وحرم عليه الطبيب شرب الشاى ، أصبحت أشرب الينسون .. لأنه أصبح يشرب الينسون !

وظل سلطانه يحلق فوق رأسى حتى بعد أن جاوزت سن التلمذة وتخرجت من المدارس لأعيش بايرادى الخاص .. كنت أستشيره من تلقاء نفسى كلما وقعت فى مشكلة .. كان الخوف ما زال فى دمى .. الخوف من الدنيا ، ومن المرأة ، ومن أن أحسم أمرا بارادتى وبدون مشورته .. كان قلبى تأكله الرغبات من الداخل ، ولكنى لم أكن أجرؤ على التفكير فيها واشباعها .. وانما كنت أتردد وأخاف وأجزع ثم أكتفى بأن أتمنى ، ثم أهرب من المشكلة كلها وألوذ بوالدى أطلب نصيحة .. وأترك له حياتى يبت فيها ويختار كما يشاء كأنه الله أو القدر ..

وهكذا ظلت حياتى معطلة طوال هذه السنين .. وظللت أعيش

طفلا كبيرا يملأ قلبى الخوف والاحترام والرهبة .. ولو سألتنى ان كنت أحب أمينة زوجتى لما وجدت جـوابا .. فأنا لم أحبها ولم أكرهها ولم أخترها .. وانما هى كصورة الجيوكندا وضعها والدى فى بيتى .. وقال انها جميلة ورائعة .. فقلت خلفه كالطفل جميلة حقا ورائعة .. واحتضنتها كما أحتضن كل كلمة يقولها أبى ..

ولكن بقدر الراحة التى كنت أحسها فى هذا الحب الا أنى كنت أحس أنه ليس حبى أنا وانمـا هو حب أبى وذوقه واختياره .. كان كل شىء حولى لا يمت لى .. كان كل شىء غريبا عنى ، حتى ملابسى .. حتى أفعالى .. حتى أقوالى كانت غريبة عنى .. ولكنى لم أكن أدرك مشاعرى بهذا الوضوح فى البداية .. لم تكن فى ذهنى فكرة واضـحة عن شىء .. كنت أعيش فى فتـور وآلية وبلادة واستسلام .. حتى مات أبى فجأة ..

وأفقت لأجد نفسى وحدى بدون سـند الى جوارى .. بدون قدر .. بدون اله .. بدون حب .. بدون مبرر لأى فعل أفعله سوى ارادتى وأين هى ارادتى !؟ .. لقد كنت أتردد ثلاثة أيام متتالية فى توقيع شيك .. وأنظر فوق كتفى بين لحظة وأخرى ، أنتظر أن يظهر والدى فجأة لأسأله : هـل من الصواب أم الخطأ توقيع هـذا الشيك ؟! ..

ولم يكن هناك حل .. كان لابد لى أن أحمل أعبائى بدون معونة أحد .. وكان هذا يسبب لى قلقا حادا قاسيا يحرمنى النوم ..

لقد بلغ ميراثى وحدى من تركة أبى مائة فدان غير العقارات

والأملاك وسندات البنوك .. وهى ثروة كبيرة فوجئت بها .. وكان معنى هذه الثروة أن أذهب فى عشرات المشاوير كل يوم .. الى البنك ، والى البلد ، والى البورصة .. وفى كل مشوار من هـذه المشاوير أقابل ناسا لا أعرفهم .. أناقشهم وأوقـع على أوراق ، وأمضى على عقود ، وأبدأ صفقات ، وأنهى صفقات

وفى كل لحظة من هذه اللحظات أشعر أنى وحيد متردد خائف .. وأعود من البنك مبلبل الذهن .. فى ظنى أنى قد نسيت شيئا ، وقعت فى خطأ ما ، أو تورطت فى اجراء غير قانونى .. ولكن بمرور الأيام بدأت أكتشف ان المـال فى البنوك والادارات المالية يحفظ نفسه بنفســه .. وانى لست فى حاجة الى ذكاء كبـير لأضاعف أموالى ، فالأموال تتضاعف من تلقاء نفسها فى العقارات والأراضى والبنوك .. وما على الا أن أذهب أول السنة لأجمع الأرباح وأوقع فى دفتر .. وبدأ الخوف يزايلنى ..

وبدأ ذهنى ينصرف الى أفكار أخرى .. أفكار لا علاقة لهـا بالأرض ، والبنك ، والمرحوم والدى..أفكار لها علاقة بى .. أنا ! ..

وحينما أحضرت لى زوجتى كوب الشاى منـذ أيام .. وقلت لها : « أنا لا أحب الشاى » .. نظرت الى فى دهشة واستفهام .. فهى لم تتعود منى أن أقول : « أنا .. لا أحب » .. تعودت أمينة أن آكل ما تقدمه ، وأشرب كل ما تقدمه .. ولكنى قلتها ..

قلت : « أنا لا أحب » .. وأنا أشعر بدهشة أنا أيضا ، لأنى أقول ما فى نفسى لأول مرة بدون أن ألقى بالا لأحد .. !

واكتشفت فى ذلك اليـوم عندما دخلت غرفتى وجلست على مكتبى .. أنى لا أرفض الشاى وحده .. ولكنى أرفض معه أشياء أخرى كثيرة .. أرفض بيتى وحياتى ، وأتمنى أن أصرخ فجأة لأقول لزوجتى : « أنا لا أحبك » . وأقول عن حياتى انها سخيفة ، وأنزع الصورة المدلاة من الجدار وألقى بها فى الشارع .. ولكنى لم أجد الجرأة على أن أقول كل هذا..واكتفيت أن أرفض الشاى فى عصبية وأزيحه من أمامى .. ثم أشعل سيجارة ..

وعادت حياتى فجأة أمامى كشريط سريع .. حياة سخيفة مثل لحية مستعارة ، ليس فيهـا ملامحى .. ليس فيها أنا .. وشـعرت بشهوة الطفل فى تحطيم أى شىء والجرى الى الخلاء .. الى الهواء الطلق ، والعربدة ، والضحك ، والبكاء .. شهوة ملحة فى أن أبسط أجنحتى التى كانت مضمومة طوال هذه السنين وأحلق بها كالطائر .. وتدفقت أيامى كلها تطالب بحقها فى أن تعيش من جديد .. طفولتى .. صباى .. شبابى ..

ثم عاودنى الجبن ، وتيقظ خوفى القديم ، وأمسك بعقالى .. وسكتُّ على مضض وأنا ألوك فى فمى آلاف الكلمات .. ولكنى أحسست أنى تغيرت ، وأصبحت شخصا آخر غير حلمى القديم .. عرفت لذة التمرد .. وظل هذا الاحساس يلازمنى وأنا أدخل الى البورصة .. والسيجارة ما زالت فى فمى .. وعيناى تقرآن الكلمات المكتوبة على السبورة فى الدور العلوى .. حركة الأسعار ، نوع اسعار الفتح ، أسعار الاقفـال .. وأذنى تلتقط صيحات السماسرة

حادة مختلطة : سيجوارت ٨٤٢ ، سيلوس : سيلوس ، التعـدين ٤٠٠ بايع ، بايع .. المناجم ١٢٨ .. الملح : الملح ، شارى .. أسمنت طرة ٩٧٠ ، ماتكسا : ماتكسا : بايع

والأيدى تلوح .. وتشتبك . والأصوات الحادة ترن فى أذنى كأصوات القطط ، وهى تتعاوى على صفيحة قمامة .. وعيونها تشع ضوءا أخضر مخيفا : ناو ، ناو .. نو .. غو .. غو غو .. ورأس الخواجة مترى التاجر العجوز ووجهه الأبرص المرقط بالبياض يذكرنى بوجه قطتنا .. جيجى ..

وانتقلت عيناى فى آلية لتقرأ على لوحة أخرى : كنتراتات أقطان طويلة التيلة .. فولى جود .. وسمعت الخواجة مترى يتحدث ويلوح بيده :

ــ يا حبيبى الدنيا هنـا مجازفة .. اللى عاوز يكسب لازم يجازف .. يرمى نفسه .. اللى يخاف هنا يموت ..

ووقفت خائفا فى ركن أطلب نصيحة الخواجة مترى قبل أن أبيع أوراقى .. وأشار على بصفقة صغيرة .. وأمسكت بقلمى لأوقع الاذن .. وأحسست برعشة التحدى تنتقل التى بالعدوى من الجو المكهرب حولى . كان كل واحد يتنمر .. ويتلمظ على المكسب ..

وأخذت أنا الآخر أتلمظ ، وأتنمر .. وأتتبع أسعار أسهمى وهى ترتفع .. وتقفز من رقم الى رقم على التابلوه .. وأتتبع الطباشيرة وهى تكتب ١١٢ ــ ١١٤ ــ ١١٨ ــ ١٢٠ ــ ١٢٢ ــ ١٢٣ ثم تتوقف ويصرخ السمسار بأعلى صوته ١٢٣ ــ ١٢٣ .

وترددت .. لا من الخوف ، ولكن من الطمع . لقد ارتفع السعر ١١ بنطا فى يوم واحـد .. فما بالى لو انتظرت يومين آخرين .. وشعرت بطمعى يتغلب على خوفى ، وشعرت باحساس الطفل الذى تزوغ عيناه أمام دكان الحلوى .. وغمزنى الخواجة مترى لكى أبيع .. ولكنى لم أبع ..

وحينما خرجت فى ذلك اليوم ، كنت أشعر بشىء جديد غامض يدخل حياتى .. كنت أحس بنبض الحمـاس والجرأة يتسلل الى عروقى .. وكنت أشعر بحياتى القديمة تسـقط عنى شـيئا فشيئا كالرداء .. وتبدو غريبة ..

زوجتى .. بيتى .. فنجان الشاى الذى أرشفه على الفطور .. أصوات الشارع الأليفة وهى تعـلو فى الصباح تحت نافذتى .. همهمة أم حسن خادمتنا العجوز على سبحتها .. ودعاؤها لى بطول العمر ..

كل هذا كان يبدو لى فى تلك اللحظة كحلم غريب غير حقيقى .. لقد تغيرت .. كان هذا الاحساس يسعدنى .. وكنت أحتفل به فى قلبى ..

***

وحينما خرجت من السينما فى الثانية عشرة لم أشعر برغبة فى العودة الى البيت .. ورأيت قدمى تسعيان على غير عادتى الى ملهى ليلى .. ودخلت فى وقت كانت الراقصة فيه تلقى بشالها ، وتمايل ، وتتأود ، وتنام على ظهرها .. وعازف الطبلة يقفز حولها كالقرد .

ولفت نظرى أن كرسى عازف الطبلة عليه شلتة ولا أدرى لماذا خطر لى أن عنده بواسير .. وضحكت طويلا لهذا الخاطر السكران .. ولم أكن قد ذقت قطرة خمر ؛ ومع هذا كنت أشعر أن رأسى مشعشع خفيف .. وكنت أرى سببا للضحك فى كل شىء حولى ..

وبدت لى حركات الطبال مثيرة للضحك .. وكان كلما مد يده خلفه ضحكت .. وحينما تركت الملهى فى ساعة متأخرة من الليل فضلت أن أعود الى بيتى ماشيا .. وكنت أجد للهواء طعما لذيذا فى رئتى .. وكنت أستنشقه فى بطء ويداى فى جيب بنطلونى .. وفمى يصفر أغنية شعبية . وكان كل واحد يمر بى .. يبتسم ..

وحينما فتحت باب شقتى فوجئت بزوجتى تقف أمامى شاحبة حمراء العينين قلقة .. تهتف فى صوت خائف : « أين كنت طول الليل ؟ »

وتذكرت فجأة أن الساعة الثالثة صباحا .. وأن هذه هى المرة الأولى التى أسهر فيها الى هذه الساعة المتأخرة .. ومسحت على وجهى بيدى .. وأنا أفيق وأعود شيئا فشيئا الى نفسى القديمة .. وتمتمت بكلام لا أذكره ..

وخلعت ثيابى .. وتناولت عشائى وأنا صامت .. لم أكن سعيدا بعودة هذه النفس القديمة . وبدا لى فى تلك اللحظة أنى هبطت فجأة من السماء الى الأرض .. وعدت الى الحياة .. كانسان ميكانيكى يدور بزمبلك ..

وناولتنى زوجتى خطابا عليه طابع دمشق .. ونظرت فى الخط

وأنا أتساءل : من الذى يرسل الى خطابا من دمشق .. ووضعته فى جيبى ..

وفى الفراش مددت يدى الى الخطـاب وفتحته لأقرأ هـذه السطور ..

« عزيزى حلمى ..

« لعلك لاتذكرنى الآن وأنت تقرأ التوقيع .. فقد مضى على افتراقنا سنوات طويلة ، ولكنى أذكرك وأذكر معك أجمل أيامى .. حينما كنـا نلعب أنا وأنت وأختى صـافى فى عزبة والدى ونحن صغار .. ونجرى فى دائرة حول النورج .. كل منا يمسك بذيل الآخر ، وأذكر أيام زمالتنا فى المدرسة الابتدائية .. وأيام هروبنا معا .. حينما كنت تخاف وتعود الى المدرسة وأمضى أنا وأختى صافى لنقضى اليوم فى حديقة الحيوان ..

« واليوم جلسنا نتحدث عنك أنا وأختى .. وفكرنا أن نلتقى ثانية لنتعرف على ماضينا الحلو .. ونعيد أيامنا الجميلة .. اننا نعيش الآن فى دمشق ولنـا أملاك وأراض هنا .. ونحن ندعوك لقضاء شهر فى ضيافتنا .. ولنا أمل كبير فى قبولك هذه الدعوة .. ونحن فى انتظار اليوم الذى تحدده .. والى أن نلتقى لك حبنـا وأخوتنا .

« فؤاد »

وشعرت بموجة من السرور وأنا أقرأ الخطاب .. وأعدت قراءته وأغمضت عينى .. سوف أذهب الى دمشق .. وأخلع ردائى كله ..

أخلع عنى هذا البيت العتيق بأركانه المظلمة ، وأخلع عنى القاهرة كلها .. وأخلع حياتى .. وعاداتى .. وكلماتى .. التى أقولها كل صباح .. وأعيش ..

وشعرت بدغدغة النشوة فى كل جسدى .. ونظرت الى زوجتى فرأيتها تنظر الىّ باستغراب وتسألنى عما فى الرسالة .. ولم أجب وتناومت .. فأحاطتنى بذراعيها ولكنى لم أشعر بالرغبة فيها . وأحسست بأطرافى تبرد وتتثلج تحت لمستها .. وأدرت لها ظهرى وبدأت أتخيل صافى .. وجهها التركى الأبيض ، وضفيرتها الذهبية ، وعينيها الصافيتين مثل كأسين من عسل النحل ، وذراعها البض مثل عود الخس الطرى

وتدفقت الرغبة حامية فى عروقى .. وأحسست بلهب الجنس يخرق دماغى .. ولكنى أخفيت هذه الرغبة كأنى أخفى سرا ، وضننت بها وتركتها تغلى فى دمى .. وتؤرقنى .. مثل سر لذيذ جدا .. وظللت أحلم ..

وكانت زوجتى تتحدث .. ولم أكن أسمعها .. كنت أنظر الى فمها وهو ينفتح وينغلق .. والى كتفيها العريضين . ودقت ساعة الحائط أربع دقات .. وثقل قلبى فجأة وعاودنى الخوف وأحسست أنى ضعيف .. وأن الساعة تدق منذ خمس وعشرين سنة .. وأنا فى بيتى لا أبرحه . وداهمنى شعور بالتردد .. شعور من يمد رجله ليخطو خطوة واسعة فى الظلام

— ٢ —

استيقظت فى الصباح وقد نسيت كل شىء .. وفى اللحظة التى كنت ألبس فيها ثيابى ، كنت أدخل فى عاداتى القديمة فى نفس الوقت .. وكانت زوجتى تمر بالفرشاة على نفس الأماكن من القماش التى تعودت أن تمر عليها كل يوم .. حول الياقة ، وعلى الأكتاف .. وعلى الظهر والأكمام .. وثنية السروال ، ثم تنصحنى كعادتها أن آخذ بالى من الطريق وتنظر الى نفس النظرة الحنونة .. وأم حسن تجرى خلفى وفى يدها الحقيبة .. والباب يزوم كعــادته دائما كل صباح ليشكو من رطوبة مفاصله .. وحارس المصعد يرفع يديه الاثنتين لتحيتى .. ويفتح فمه فى بلاهة فتبدو سنته الذهبيــة .. نفس السنة الذهبية ذات الطربوش المكسور التى أصطبح بهــا كل يوم .

وجلست فى العربة ، وتصاعدت الى أنفى رائحــة البنزين .. وسمعت صوت الموتور .. ورأيت واجهات المحــلات تتحرك فى الزجاج وتختفى .. ولكن أذنى ظلت تردد جملة واحــدة طول الطريق .. جملة قالتها زوجتى وهى تعطينى المنديل : « لاتنس !انا سوف نحتفل اليوم بعيد ميلاد ابننا .. »

جملة غريبة فى هذا السيل من الحياة العادية .. ظلت ترن فى أذنى

طول الطريق ، وأنا أحس أنها جملة ظريفة .. وأتذكر احتفال السنة الماضية الذى لم يحضره أحد سواى أنا وزوجتى وأبى .. وكيف كانت زوجتى غاضبة لأنها لم تدعُ صديقاتها وأبى غاضب لأنها تناقشه وتريد عزومة الناس .. وماذا وراء عزومة الناس الا الحسد ، وأنا آكل من التورتة ولا أفكر فى شىء .. وابننا يصرخ فى الغرفة .. ولكنى الآن أفكر فى أشياء كثيرة .. وأنتظر هذا الاحتفال بشوق .

وكلمات زوجتى ترن فى أذنى كما ترن بشرى العيد فى أذن طفل .. واحساسى بالنزق يدفعنى الى الضغط على الكلاكس .. والعبث .. وأنا أسوق .. وأنا أتأرجح يمينا ويسارا ..

اليوم نحتفل .. أنا أشعر بانبساط .. وتوقفت عند دكان لعب واشتريت قردا بزمبلك يقفز ويصفق بيديه .. واشتريت ورقا ملونا .. وصواريخ ..

وتوقفت مرة أخرى عند محل ورد .. ثم عدت أستأنف سيرى وأسلم نفسى الى حياتى العادية .. وعلى شفتى ابتسامة .. وفى المساء حينما عدت الى البيت ، دخلت غرفتى وأنا أصفر .. ثم أغلقت الباب وأخرجت القرد وأدرت الزمبلك .. ورحت أتفرج عليه وهو يقفز ويصفق بيديه حتى توقف .. ثم أدرت الزمبلك مرة أخرى ورحت أتفرج .. ونسيت أنى قد أحضرت اللعبة لطفلى .. ورحت ألعب بها ..

ولكن زوجتى التى تسللت من الباب الموارب وجاءت تستطلع .. ووقفت تتفرج ، مالبثت أن هتفت فى دهشة أيقظتنى ـ « أنت الذى

تلعب .. غير معقول ؟ »

وضحكت وأمعنت فى الضحك .. ومع هذا فقد أمسكت هى الأخرى بالقرد .. ثم بدأت تدير الزمبلك وتلعب .. ثم قالت فجأة فى مرح : « ان حفلة اليوم ستكون ظريفة .. لقد دعوت جيراننا .. ودعوت صديقتى فاطمة .. »

ورفعت رأسى عند ذكر الاسم .. وكنت أسمع منها دائما حكايات كثيرة عن صديقتها فاطمة المحامية .. ولكنى لم أكن قد رأيتها أبدا ..

وكانت كثرة ذكرها أمامى ، ورواية حكاياتها ، قد جعلت لها شخصية فى ذهنى .. وشعرت بسرور خفى .. وعدت أملأ الزمبلك.. وأتفرج على القرد .. وهو يقفز .. ويصفق بيديه .. !

***

ولأول مرة كنت أشاهد كرسى الصالون من غير بياضات هذه الليلة .. وقماش الطقم يلمع فى ضوء النجفة الكريستال .. وكنت أتحسس قماش الطقم فى لذة .. وأختلس النظر الى الضيوف .

كانوا ثلاثة .. جارنا الأستاذ عزيز ، وزوجته نادية ، وفاطمة المحامية ..

وكنت أختلس النظر الى فاطمة وأتتبع حركاتها فى اهتمام .. وأجد من الصعب الآن أن أصف احساسى بها لأول مرة .. كان احساسى حينما أمسكت بيدها لأصافحها أنى أمسك بأصابع خالية من العظم .. وبشرة ملساء فيها ملاسة حيوانية كأنها جسم «عرسة».

وكان صوتها المبلل وهو يحادثني فيه لزوجة تلتصق بالأذن وبالأعصاب . ولم تكن جميلة .. ولكن جسمها كان فيه بضاضة ..

وكان صدرها « يكظ » من فتحة ثوبها .. وكانت أردافها تضغط على الفستان .. وكانت استدارة كتفها وهي تختفي تحت الحرير الأسود المطرز تثير الخيال والتصور .. وتغريه على تتبع هذا الانسيال .. وكان تكور بطنها تحت الفستان يوحي بأن لحمها ليس فيه ثنية واحدة وأنه مشدود متوتر .. فائر .. وكانت عيناها فيهما بريق .. يومض .. وينطفىء .. حينما ينعكس عليهما الضوء .. وهي تتلفت ..

وكانت في شخصيتها جرأة واقتحام .. وكانت في كلماتها مبادرة غير عادية في النساء . كانت على عكس زوجتي تماما .. وكانت زوجتي سعيدة بها جدا .. فخورة بشخصيتها وجرأتها .

وكانت تقول وهي مبهورة :

ـ هذه هي رائدتي .. هذه هي القائدة التي كانت تتزعمنا في المظاهرات وفي الاضرابات .. وكانت خطيبة المدرسة الرسمية .. ورئيسة فرقة التمثيل .. ورئيسة كل حاجة .

ـ فعلا .. ان مخايل الزعامة تبدو عليها ..

كنت أقول هذا وأنظر اليها .. فتبادلني بنظرة ثابتة وعينين فاحصتين لاتطرفان حتى أنكس بصري .. فتلاحقني بكلماتها وصوتها المبلل .. وتبادرني قائلة في تحد :

ـ مالكم دائما تصابون بالدوار حينما تسمعون عن امرأة ..

تقود وتأمر ..

فأقول وأنا أحاول أن أثبت نظرتى فى عينيها :

ــ لأن المرأة تقود وتأمر فعلا بدون حاجة الى مظاهرات واضرابات وخطب .. لأننا نحبها ونسلمها ذقوننا .. فيصبح الرأى رأيها والكلمة كلمتها ..

ــ أنا أرفض هذه القيادة التى أفوز بها لمجرد تنازلكم .. انه غرور منكم أن توقفوا حياتنا على حبكم .. أنا أيضا لى غرورى .. أنا أريد أن أغتصب حقى بيدى .. وآخذه رغما عنكم .

ــ أتسمع الكلام .

وتصفق زوجتى فى سرور واعجاب .

ــ أتسمع الكلام . هذه هى المرأة الجديدة التى سوف تريكم مقامكم ..

ــ انها لن ترينا مقامنا .. وانما هى سوف تسعى الى حتفها بيدها .. سوف تتحول الى رجل .. وسوف نرحب نحن بأن نصبح نساء . نجلس فى البيت وتأخذ نفقة ومؤخرا ومقدما وشبكة وبذلات أنيقة وكرافتات سولكا لأعياد ميلادنا .. انها ورطة يسرنا أن تقع فيها . أنا لا أمانع شخصيا فى أن أنام فى البيت ، وأتنازل لكن عن الشقاء وعرق الجبين ..

ــ أتظن أنه يمكن أن أتحول الى رجل ؟ انى أعمل منذ خمس سنوات .. أتظن أنى أصبحت رجلا ؟ .. أنظر جيدا ..

وترمقنى برمش عينيها فى دلال . ويقهقه الأستاذ عزيز ..

ـ انك لاتغلبهن ياصاحبى .. اسمع نصيحتى .. ان الطريق الوحيد لتغلب المرأة هى أن تجعلها تحبك .. وحينما تحبك سوف تقتنع بكلامك .. وتكف عن مناقشتك ..

ـ لماذا يصرون على تصويرنا هكذا فى صورة مخلوقات عقولها فى عواطفها .. مخلوقات لاتفهم ولا تعقل .. ولا تحركها الا نزواتها . أنتم واهمون .. نحن الذين ضحكنا عليكم .. وروجنا هذا الوهم .. وأدخلنا فى ذهنكم أننا مخلوقات عاطفية قليلة الحيلة .. وأنكم شطار وأقوياء .. ضحكنا عليكم بهذا الكلام الفاضى لنأكل عقلكم ونأخذ مانريده .. تماما كما نفعل مع أطفالنا ..

وتصفق أمينة وتقف وتجلس فى سرور ..

ـ أتسمعون ؟! لقد ضحكنا عليكم كما نضحك على أطفالنا ..

ويقهقه الأستاذ عزيز ويمسح على رأسه الأصلع ..

ـ أتن يانساء لاتجدن الا الثرثرة .. ان الله لم يقطع ضلعا من آدم ويصنع منه حواء .. ولكنه فى الغالب قطع لسانه وصنع منه امرأة ..

ـ وخصوصا حينما تكون المرأة محامية مثل فاطمة .. انها لابد أن تكون مخلوقة من لسان ضانى أصلى .. !

ـ أنا شخصيا أعتقد أن الله قطع أصبع حواء وصنع منها آدم .. ومازالت المرأة الى الآن تصنع الرجال بأصبعها .. انها تشير فى أى مكان الى الرجل فيتبعها وما يلبث أن يصبح زوجها .. وأنا فى المحكمة أشير بأصبعى وأنا أترافع .. وأنقذ أعناقكم يارجال من

المشانق .. هكذا بأصبعى فقط ..

وتهلل أمينة فى سذاجة .. وهى تحتضن صديقتها ..

ــ أتسمعون .. بأصابعنا .. فقط ..

ويقهقه الأستاذ عزيز ..

ــ لا فائدة من مناقشة امرأة .. انك تلف وتدور .. ثم تسلم لها بكل ماتريده .. لأن دمها خفيف . ولأن لذة ارضائها تفوق لذة الحقيقة .. أنا شخصيا أرفع الراية البيضاء .. وأسلم ..

ــ برافو يافاطمة كسبنا القضية ..

وتضحك فاطمة وتهتف :

ــ أشكرك .. والآن .. أين مؤخر الأتعاب ..

ــ لقد أعددنا لك عشاء شهيا ..

ــ رائع .. يا أختى ..

وعلى العشاء كان فى امكانى أن أراقب الأستاذ عزيز عن كثب .. وأتأمله .. وهو يتكلم ويأكل ويلوح بيديه ..

والأستاذ عزيز قصير القامة ، فى الأربعين ، رأسه صلعاء فى منتصفها . ولكن الشعر الأبيض والأسود يكسوها من الجانبين ..

وهو حينما يتكلم يلعق شفتيه بلسانه من لحظة لأخرى ثم يزم فمه .. فتبدو شفتاه رفيعتين جدا ، وفمه مرسوما فى صرامة وقسوة ..

وهو يتكلم بحدة .. ثم ينفجر فى الضحك من تلقاء نفسه .. ويقهقه بحدة أيضا . وطول الوقت كان عزيز لايرفع بصره عن

فاطمة . وكان يخيل الىّ أحيانا أنه يأكل منها هى .. ولا يأكل من الطبق .. لأن الطبق كان يفرغ ولا يفطن اليه .. ويظل يحملق أمامه حيث تجلس فاطمة الى جواره . ونهداها النافران ينصبان من صدرها فى تكور شهى رجراج .. وكنت أحس وهى الى جوارى بملمس ذراعها .. وبذلك الشعور الأملس الحيوانى الذى يتسرب الىّ من جسمها الطرى الذى يشبه جسم « العرسة » .. فأشعر بالخدر وأترك كتفى لاصقة بكتفها ثم أعود فأتيقظ وأنفر بعيدا .. وأنظر الى عزيز وهو يلعق شفتيه .. ويزم فمه .. ويموء كالقطة وهو يأكل .. وكان الكلام يدور على المائدة عن المحاماة .. والمفارقات التى تلاقيها المحامية أثناء العمل ..

وكانت زوجتى تتكلم عن قضية الوقف التى رفعناها من سنين .. ولم تصل فيها الى نتيجة ، وتقترح علىّ أن نسلم القضية الى فاطمة .. لتعالجها بعبقريتها .. وفاطمة تبدى استعدادها ، ثم تنظر الى ناحيتى وتهمس :

ـ آخذ فيها ألف جنيه ..

ـ أنا مستعد .. اكسبيها أولا وأنا أعطيك ألف جنيه .

ـ اتفقنا .. مر علىّ غدا فى المكتب .. لنبدأ فى الاجراءات ..

ولا أدرى لماذا أحسست بالخجل فجأة .. كأنى طفل يأخذ ميعادا غراميا .. وضايقنى احساسى .. ونظرت اليها فى رهبة من جانب عينى وضبطتنى وأنا أنظر اليها خلسة .. وابتسمت .. ثم ضحكت .. وأشرق وجهها بسعادة آثمة .. وغرور .. ضايقنى أكثر وأكثر .

وشعرت بالغيظ وبميل الى السخرية منها .. فقلت وأنا أضغط على كلماتى .. كلمة .. كلمة :

ــ ان كل أمنيتى الآن أن أعيش حتى يصبح كل القضاة نساء .. وأشاهد فشل كل المحاميات بعينى .

وضحكت فاطمة وهرش عزيز رأسه . بينما أردفت أنا فى هدوء :

ــ اننا نحن الرجال الذين نكسب لكن القضايا .. أنتن تصعبن علينا . ولو كنت قاضيا ووقفت أمامى تبكين حظ المتهم حتى بح صوتك ، فانى كنت أعطيك البراءة لمجرد الشفقة .. فأنتن مهما أخذتن الشـهادات والدبلومات وارتفع صـوتكن بالجعجعة .. ستات .. ولايا ..

فأجابت فاطمة فى بساطة :

ــ حينما يصبح المحامى امرأة والقاضى امرأة فسيكون المتهم رجلا ولن تهمنا القسوة حينذاك لأنها ستقع على دماغكم .. !

ــ حينذاك سوف نترك لكن الدنيا .. ونذهب لنعيش فى القمر أو فى أى كوكب آخر !

ــ حقا ؟! .. أتستطيعون .. ؟!

وكانت تنظـر الىّ وكأنها تقول لى من طرف خفى : « انك لاتستطيع حتى أن تترك الكرسى بجانبى ! .. »

***

كنت أدخن بشراهة بعد العشاء .. وأنظر فى الركن حيث توجد زهرية كبيرة قديمة ، والضيوف من خلفى يثرثرون ويضحكون ..

وفاطمة تحتضن ابني وتقبله .. وصوت البيـــانو يعلو من أقصى الغرفة .. فأظن أنه الراديو .. لأن البيانو عندنا مجرد قطعة أثاث يعلفها التراب من سنين ، ولا يضرب عليه أحد .. ولكنني فوجئت بمدام عزيز جالسة على كرسى البيانو تعزف ..

ودهشت لأني طول السهرة لم أفطن الى مدام عزيز .. لم أحس بها .. كانت موجودة معنا طول الوقت .. لكن بدون صوت .. لم تتكلم كلمة واحدة .. وتذكرت أنها كانت تجلس عن يسارى على المائدة طول الوقت .. ولم أنظر اليها .. وكان زوجها عزيز يقف على مقربة ، ينفث الدخان من سيجار ضخم .. وقال لى عندما رآنى :

« ان زوجته نادية عازفة بيانو ممتازة »

وسمعت زوجتى تهتف :

ـــ برافو يانانى .. هذا عزف رائع ..

ورفعت نادية رأسها الصغيرة .. ونظرت الينا .. كان وجهها رقيقا صغيرا فيه طفولة .. وعيناها السوداوان فيهما قلق وشرود . وكان يخيل الىّ أنها لاترانا .. وأنها تنظر من خلالنا ..

وعادت الى العزف .. واختفت رأسها الصغيرة خلف البيانو ..

أين سمعت هذه المقطوعة ؟؟ .. واقتربت من البيانو .. وكنت أرى شعرها المتهدل .. وكتفيها المنحدرين وجسمها الضـــئيل .. ويدها الصغيرة .. وهى تنتقل بسرعة على مفاتيح البيانو ..

وانتهت من العزف .. ورفعت رأسها ببطء .. ودارت ببصرها فينا ..

ومرة أخرى شاهدت عينيها السوداوين وذلك القلق المبهم .. والشرود .. والضياع .. الكامن فيهما ..

كانت تنظر الينا كأننا غير موجودين .. وتتكلم فى همس كأنها تكلم نفسها .. وتبتسم ابتسامة فيها وجل وتردد ..

وقال عزيز :

ــ ان زوجتى تقرأ كثيرا .. انها دودة كتب ..

واختفى صوته فى ضوضاء البيت .. ورنين ضحكات طفلى وهو يجرى .. وفاطمة تجرى خلفه .. ومرت لحظة صمت .. وسعل عزيز سعلة حادة ، ثم عاد يحاول اشعال سيجاره الذى انطفأ ..

***

فى تلك الليلة حينما أغمضت عينىّ لأنام ، حاولت أن أتذكر الوجوه التى شاهدتها فى الحفلة .. وجها .. وجها .. ولكنى لم أستطع أن أجمع أشتاتها من ذهنى .. كانت صورة فاطمة تلح على خيالى وتتسلل الى أعصابى ومعها تنميل يخدرنى كلى .. صوتها المبلل .. وملمسها الناعم الحيوانى .. وصدرها النافر الرجراج .. والبريق المشع فى عينيها .. وشخصيتها الوقحة .. وكلامها المليء بالاستفزاز ..

واكتشفت أنى نسيت تماما أصدقاء دمشق .. ومشروع دمشق .. وانزلقت من ذهنى كل الرغبات وحل محلها شعور واحد مختلط .. هو فاطمة .. اشتهاء .. ونفور .. وغيظ .. وخوف .. ورغبة فى فاطمة .. رغبة فى ايذائها ..

كنت أتخيل أنى أمزق فستانها حتى تصرخ .. وتقول : ارحمنى .

ولكنها لم تكن تقول : ارحمنى .. وانما كانت تضم أطراف جسدها العريان .. وتنظر الىّ نظرة من هذه النظرات التى تبرق ..

وكنت لحظتها أفيق من خيالاتى .. وأتذكر الميعاد الذى بيننا فيخفق قلبى بشدة .. وتوترت أعصابى فلم أستطع النوم .. وظللت أحملق فى الظلام .. وأتقلب فى فراشى .. وأتململ .. وأنفخ .. ثم أحاول أن أطرد كل شىء من ذهنى لأنام ..

وتضخمت أصوات الليل الخافتة .. فأصبحت جلية واضحة فى سمعى .. وبدأت أتتبع صوت قطرات الماء وهى تدق على الحوض .. وتكتكة الساعة .. وطنين موتور الثلاجة ..

وتيقظت زوجتى وسألتنى ان كان هناك شىء يؤرقنى .. فقلت : لاشىء .. القهوة كانت شديدة وهى التى نبهت أعصابى ..

وسمعتها تروح فى النوم من جديد .. وسمعت تنفسها يزداد انتظاما وعمقا كلما أوغلت فى النوم .. ثم أحسست بذراعها يحوطنى وينام وادعا على صدرى .. وسمعت فمها يتمتم كلاما لم أتبينه .. لاشك أنها كانت تحلم حلما رقيقا حنونا ..

وسألت نفسى فى تلك اللحظة : « ماذا أريد .. ؟! ماذا أريد بنفسى .. ؟! »

ها أنا ذا الآن زوج يتمتع بزوجة تحبه وطفل يعشقه .. وصحة وشباب ومال وجاه .. وها أنا ذا أتقلب على فراشى مؤرقا كشخص مريض تلسعه الحمى .. ماذا أريد ؟! .. ماذا أريد ؟!

وكان السؤال صعبا .. أصعب من الأرق .. وشعرت بالصداع .. وثقل رأسي جدا .. ورحت فى النوم .. نوم قلق تشوشه الاحلام ؛ وكلها أحلام من نوع واحد .. يخيم عليها الخوف ..

فأنا فى مرة أركب تراما فيخرج عن الخط .. وفى مرة أخرى أركب سفينة فتشرف على الغرق .. وفى مرة ثالثة أدخل الحمام فيسرق الخادم هدومى .. وفى مرة رابعة أذهب الى المكتب فأكتشف أنى نسيت الحذاء .. وأنى سرت طول الطريق حافيا .. ينظر الناس فى وجهى باستغراب .. وأنا دائما أقع من آخر دور .. ولا أصل الى الأرض أبدا .. وانما أظل أهوى من حالق فى ذعر أوشك على الاصطدام والتناثر كل ذراع فى ناحية .. ولا أجد شيئا أمسك به .. ولا أحدا أنادى عليه .

وحدى .. وحدى .. فى الهواء .. بلا أرض .. أقف عليها .

لم يكن نومى نوما .. كان عذابا .. كنت أعانى ..

وحينما فتحت عينى على ضوء النهار .. وشعرت بدفء البيت حولى . وسمعت ضوضاء الناس فى الشارع .. شعرت كأنى خرجت من جب مظلم تحت الأرض .. وأحسست بالراحة .. ولكنى بعد ذلك بساعة حينما وقفت أمام المرآة أتطلع الى طولى وعرضى وأناقتى ، لم أستطع أن أنسى ذلك الاحساس الذى ظل يأكلنى طول الليل .. بأنى صغير وحيد ضائع فى الدنيا .

كل هذا الطول والعرض لم يسترنى وأنا نائم وظللت أنتفض من الخوف كطفل تركته أمه وحيدا فى الظلام ..

وحينما كنت أسير فى المساء الى مكتب فاطمة المحامية أحمل تحت ابطى ملفات القضية التى اتفقنا عليها .. عاودنى مرة أخرى ذلك الشعور ..

وأحسست أنى أضرب الأرض بقدمى بشدة .. وأرفع رأسى فى صرامة .. وأقطب جبينى .. لأبعد هذا الاحساس بالضعف .. وحينما دخلت مكتبها .. وقابلتنى ضاحكة .. شعرت فجأة بالارتباك .

وسارعت الى الملفات أفتحها ، وبدأت أشرح لها القضية التى حفظت كل تفصيلاتها .. وذاكرتها فى البيت جيدا ..

وظلت تصغى ويدها على خدها .. وعيناها مسلطتان كالمصباحين الكشافين على وجهى طول الوقت .. وبعد فترة قضيتها فى القراءة رفعت رأسى ونظرت اليها سائلا :

ـ هيه ... هل فهمت الآن المشكلة كلها .. ؟

ولكنها انفجرت ضاحكة .. وأغرقت فى الضحك ..

ـ لماذا تضحكين ؟ ..

لأنك جد جدا .. ولو قدر لك أن ترى نفسك لضحكت أكثر منى .. انك تدخل متجهما وفى يدك الملفات وكأنك النائب العام ثم تخبط الملفات على المكتب .. وتفتحها وتمضى فى القراءة بصوت عال .. ثم تسألنى فجأة كأنى تلميذة .. وتقول .. هيه .. هل فهمت .. أراهن أنك لم تفهم كلمة واحدة مما قلته .. لقد أضحكتنى ياشيخ ..

وتراخت أعصابى دفعة واحدة .. وابتسمت رغما عنى .. ووجدت نفسى أنظر لها فى استسلام .. وقد أيقنت أنى افتضحت ..
وأخذت أتلهى بالنظر الى الغرفة حولى .. الى القماش الأزرق الذى يغلف الكراسى .. والأباجورة التى تتدلى على تمثال امرأة عارية .. والى عينى فاطمة اللتين يعربد فيهما الكلام ..

وكان واضحا أننا نحن الاثنان لانهتم كثيرا بأمر القضية .. وأننا كلانا نبحث عن مواضيع أخرى نتكلم فيها ..

وقلت وأنا أشير الى الأباجورة :

ــ أنت أيضا تزينين غرفتك بتمثال امرأة عارية .. كنت أظن أن هذا الضعف فينا فقط نحن الرجال ..

ــ لقد بحثت عن تمثال رجل عار فلم أجده .. ان الذنب ذنب النحاتين الذين لاينحتون الا للنساء ..

وصبت لى الشاى فى الفنجان أمامى .. وبدأت أشرب وقد عدت الى نفسى قليلا .. وزال عنى الحرج فلم أعد بحاجة الى الكذب والكلام فى القضية ..

قضية ايه ؟!

وقلت وأنا أتلفت حولى :

ــ مكتبك جميل .. لايبدو أنه مكان تناقش فيه القوانين .. انه صالون ..

ــ انى أحب أن أستمتع بحياتى وعملى .. انى أحيط نفسى هنا بكل الأشياء التى أحبها .. وأنت تجد حولى كل شىء .. حتى الراديو .

وأخرجت راديو صغيرا فى حجم علبة السجاير .. وأدارته فخرجت منه الموسيقى ..

ــ ياترى بيتك جميل هكذا مثل مكتبك ؟.

ــ أجمل بكثير ..

ــ ان زوجك رجل سعيد ..

وضحكت ضحكة جافة ..

ــ زوجى .. لقد طلقت زوجى من زمان .. ان الحرية أجمل شىء فى الدنيا .. هل جربت حياة العزوبة ..

ــ لا ..

ــ أنت مسكين .. لقد ضاع نصف عمرك .. ان أجمل شىء فى الحياة أن تعيش لاتعرف ماذا يحدث لك غدا .. !

ــ ألا تخافين من كلام الناس .. وأنت تعيشين هكذا .. زوجة مطلقة فى بيت طويل عريض وحدك حرة كما تشائين ؟ ..

ــ ومن هم الناس الذين أعمل حسابهم ؟ .. كل الناس كذابون .. ثرثارون منافقون تافهون .. أنا أعطى لهم المثل .. وهم يمشــون خلفى .. ويقلدونى .. ان كل جارة من جاراتى تتمنى أن يكون لها مكتب مثل مكتبى وعمل ناجح وزوج تطلقه وتعيش حرة مثلى . ولكنها تقول كلاما آخر حينما تسألها .. لسانها يقطر كذبا وحسدا .. أتريدنى أن أحسب حسابا لمثل هذه المرأة ؟ .. انى أعيش حيــاة واحدة .. فكيف أتنازل عنها لامرأة ثرثارة كذابة . ولماذا .. لمجرد أن ترضى عنى .. وماذا يساوى هذا الرضى الكاذب .. ؟!

وقاطعتها فجأة لأقول فى نبرات جادة :

ـ قولى لى .. لماذا حدث الطلاق بينك وبين زوجك .. ؟

وشعرت أنها تضايقت .. ولكنها أجابت فى برود :

ـ لأنه رجل مغفل .. مثل كل الرجال المغفلين .. يريدلى أن أكون جارية يملكها لا زوجة يشاركها حياته .. يريد أن يجرى ويلهو على كيفه ثم يعود الى البيت ليجدنى راكعة عند قدميه .. أقول له ياحبيبى .. يامعبودى .. وكأنى أرض وقف مكتوبة باسمه .. يتركها خرابة مائة سنة ثم يعود فيجدها مازالت خرابة ..

وقلت لها بهدوء :

ـ هل كنت زوجة مخلصة ؟

فأجابت وهى تضحك ضحكة مقتضبة :

ـ ان الاخلاص تعقل لاداعى له .. انه أحيانا يلائم المرضى والمقعدين .. وأصحاب الأعمال الذين لايجدون وقتا ليعيشوا ويستمتعوا ..

ثم انتفضت فجأة لتقول بغيظ :

ـ ولماذا تطالبون المرأة وحدها بأن تكون مخلصة ؟ .. لماذا لاتطالبون الرجل بالاخلاص ؟ .. لماذا تغتفرون له عندما يخطىء ولا تغتفرون للمرأة ؟! ..

ـ لأن المرأة تحمل ثمرة خطئها .. لأن خيانة المرأة معناها طفل غريب فى العائلة ..

ـ وخيانة الرجل معناها أيضا طفل غريب فى عائلة أخرى ..

ـ عائلة أخرى بعيدة عنا ..

ـ ياسلام .. ألا تحس بأنك تستحق الشنق وأنت تقول هذا الكلام الفارغ ؟

وعادت الى الضحك وأردفت فى دلع :

ـ واذا كانت الأطفال هى كل المشكلة .. فيمكن أن نلجأ الى موانع الحمل .. !

ـ هذا هو الانحلال بعينه .. تصورى زوجة تحمل فى حقيبة يدها موانع الحمل كما تحمل الروج وزجاجات البارفان .. هل يمكن لمثل هذه الزوجة أن تهتم بعمل أو بيت .. ؟!

ـ ولماذا لا تقولون هذا الكلام لأنفسكم يا رجال .. ألا تحملون أمثال هذه الأشياء فى جيوبكم أحيانا .. ألا تحمل أنت الآن فى جيبك أحد هذه الـ ..

دعنى أفتشك .. وهجمت علىّ فجأة لتفتشنى .. وألجمتنى المفاجأة .. فتركتها تعبث فى جيوبى وتخرج المناديل .. والمحفظة .. وتفتشنى جيبا جيبا بدقة ..

وأخيرا سمعتها تقول فى رقة ولطف :

ـ يا لك من طفل وديع صغير .. انك لا تحمل سوى قطعة شكولاتة .. يا لك من ملاك ..

وداعبت خدى بأصبعها .. واحمر خداى من الخجل والاحراج وشعرت بالغيظ لأنها تعاملنى هكذا كأنى طفل .. وقلت بجفاف :

ـ لا تظنى أنى ملاك الى هذه الدرجة .. انى فى الحقيقة شيطان

على طريقتى أحيانا ..

ونظرت التى بخبث :

ــ أحقا .. أنا لا أصدق .. ان الشياطين لا يقولون عن أنفسهم شياطين ..

وأردفت فى دلع :

ــ وما دمت تأكل البونبون والشكولاتة ياشيطانى .. فماذا تشرب هل تشرب تليو .. ؟!

ومالت على الجرس خلفها لتدقه ..

ــ سوف أطلب لك تليو ..

واشتد غيظى من سخريتها .. ولاحظت هى أنى مغتاظ .. فسكنت وقالت برقة :

ــ هل آلمتك ؟ .. لماذا يؤلمكم يا رجال أن تقول عنكم أنكم قطط صغيرة وديعة ويسركم أن تقول عنكم وحوش .. أنتم أغبياء .. أنا فى الحقيقة لا أحب الا القطط الصغيرة الوديعة ..

ــ هذا شذوذ جنسى ..

وضحكت ضحكة خليعة ..

ــ ليكن شذوذا .. ماذا يهمنى .. انى امرأة نباتية معدتى رقيقة .. لا أحب لحم الحيوانات ، وانما أحب الخضروات الناعمة الغضة مثلك .. فقلت بغضب :

ــ أنا لست ناعما ولا رقيقا ..

ــ حسنا أنت خشن غليظ .. أيرضيك هذا .. أرجوك لا تحاول

أن تكون حيوانا .. ان زوجى كان حيوانا .. كان طويلا وعريضا وغليظا كالثور .. وكان يخور وهو يتكلم .. وكان يهز الأرض وهو يمشى .. ومع هذا لم أكن أحتمله .. كنت أشمئز منه .. انى لا أطيق هذا الصنف من الرجال الذى يختال بعضلاته وشعر صدره .. انه يقرزنى .. انى أحلم برجل من نوع آخر ، رجل رقيق الشاعر ساهم النظرات مثلك .. أرجوك لا تحاول أن تلبس أمامى فروة الأسد .. انك تفقد كل سحرك وتصبح شيئا مضحكا ..

والحقيقة أنها أغاظتنى لدرجة أنى بدأت أضحك بعصبية . ثم بدأت هى الأخرى تضحك.. وأخذنا نضحك نحن الاثنين فى مرح ..

وماذا يهم ان كنت أسدا .. أو قطة .. ما دمت ..

وتلاقت أيدينا على المكتب ونحن نضحك وتماسكت أصابعنا بعصبية .. وتشبث كل منا بالآخر كأنه غريق يمسك بطوق نجاة .

وخفتت ضحكاتنا شيئا فشيئا .. ولكن أيادينا ظلت متماسكة .. ونظر كل منا للآخر نظرة مليئة بالود ..



— ٣ —

كانت الساعة تدق الثانية بعد منتصف الليل .. وأنا سهران .. أنظر بعينين مفتوحتين الى النافذة التى تشبه بروازا أسود حول سماء مرقشة بالنجوم .. وكان الهواء راكدا لزجا .. والجو حار .. وقد تخففت من ثيابى حتى أصبحت ألبس جلبابا رقيقا على اللحم .. ومع هذا لم أكن أشعر برغبة فى النوم ..

ودق التليفون الى جوارى وسمعت صوت فاطمة تقول فى اعياء ونبرات ممطوطة :

ـ آلو .. أنت .. ماذا تفعل ؟ ..

ـ لا شىء .. صاحية الى الآن ؟ .. ما الذى يبقيك حتى هذه الساعة ؟ ..

ـ متعبة .. مريضة .. جسمى كله مهدود . انى أحادثك من فراشى وبطنى يؤلمنى آلاما حادة . وقد خرج الطبيب منذ لحظة بعد أن أعطانى حقنة ..

ـ سلامتك ..

ـ حلمى .. أنا خائفة ..

ـ خائفة ؟ .. من ماذا .. ؟

ـ أخشى أن أموت هكذا وحدى أو أنام فلا أصحوا من نومى أبدا ..

ـ ما هذا التخريف .. ؟

ـ البيت حولى يشبه مقبرة فى هذه الساعة من الليل ..

ـ أليس معك أحد فى البيت .. ؟

ـ معى الطاهية العجوز وقد سافرت الى البلد ..

ـ آمنت الآن بأنك لاتستطيعين أن تملئى بيتا وحدك حتى ولو كان معك شهادة حقوق .. ؟!

ـ أنت مجرم .. أهذا وقت الشماتة .. أى بطنى .. ان النوبة ستعاودنى .. انى خائفة .. أرجوك ..

ـ ألم تستريحى على الحقنة :

ـ بطنى .. بطنى ..

ـ سوف أحضر حالا ..

ولبست ثيابى بسرعة وهرولت خارجا ..

وفى الطريق كان قلبى يدق بعنف فى ضلوعى .. وكنت أسأل نفسى ما معنى كل هذا .. هل أحب فاطمة .. هل أحبها حقا .. وهل هذا هو الحب الذى يقولون عنه .. ؟

لا أنكر انى أشعر بسعادة فى الجلوس الى جوارها .. وأنتظر مواعيدها بلهفة .. وأرتب فى ذهنى كلاما كثيرا لأقوله ثم أنساه .. وأشعر بخدر فى جسمى وأنا ألمس يديها .. وأصحو على شوق .. وأنام على شوق .. وأعيش فى انتظار شىء ما كل يوم ..

ان العقل يتعب . ما فائدة التفكير فى كل هذا ..

وكنت أدخن آخر سيجارة فى العلبة ، وأقنع نفسى بأنه لاداعى

للتفكير فى شىء وأدق الجرس ..

وفتح لى تومرجى .. ودخلت فوجدت الطبيب الى جوارها .. يحقنها بحقنة ثانية ..

ورفعت التى وجهها وبرقت عيناها .. وكان الطبيب يؤكد لها أنه لم يجد شيئا فى الفحص.. وأن المغص سببه احتقان بسيط فى المبيض .. وهى مسألة غير مهمة بالمرة . ويمكن أن تنشأ من البرد أو من الافراط فى الشراب .. وكانت رائحة الشراب تفوح منها فعلا ..

وخرج الطبيب وبقيت الى جانبها .. وكان وجهها سعيدا ..وكانت أساريرها مسترخية فى راحة .. وقد زال الألم تماما وحلت محله شقاوة تبدو فى عينيها .. وركنى فمها وهما يرتعشان فى خبث ..

وأمسكت بيدى ..

ـ يدك دافئة .. أدفأ من يدى .. هذا يدل على أن قلبك بارد ..

ـ ويدل أيضا على أن عقلك فاضى ..

ـ سوف أقطع لسانك الطويل هذا .. سوف أقصه بهذا المقص يا طفلى الصغير ..

وغمزت لى بعينيها ..

ـ أما زلت تحمل شـيكولاتة وبنبون فى جيبك .. أين كنت تتشيطن اليوم .. ؟!

ـ لا شىء يؤدبك غير المرض .. لقد كنت نائمة منذ دقائق ساكنة ومذعورة مثل الفأر .. ما كان يجب على الطبيب أن يعطيك هـذه الحقنة ..

ـ اسكت انها حقنة لذيذة جدا .. لقد قال الطبيب انها هى الحقنة التى يأخذها المساطيل .. وأنا الآن مسطولة .. ومبسوطة .. والدنيا أمامى مثل حضن كبير حلو ..

ـ انها ليست الدنيا التى تزغلل عينيك .. انه الرجل الذى يقف بجوارك ..

ـ ها .. ها .. ها .. أنت مغرور .. أنا لا أحب الرجال

ـ ماذا تحبين اذن .. ؟

ـ أحب البنبون والشيكولاتة .. ها .. ها ..

ـ اذا كانت حقنة مخدر واحدة تجعلك تتكلمين هكذا .. فانك سوف تصبحين مدمنة خطرة ..

ـ أنا مدمنة خطرة لكل شىء .. أنا مدمنة لحظات سعيدة .. مدمنة دنيا .. اسمع .. أن الدنيا مثل الأفيون تماما .. طعامها يصيب الجسد بالخدر والهمود ..وروائحها العطرة تدوخ .. وشمسها تسطل .. ونسيمها يدغدغ الخدود .. وعنبها يسكر .. وخمرها ينسكر .. وكل شىء فيها يسكر .. الدنيا مخدرات ..

ـ أنت أخطر ما فيها من مخدرات .. !

ـ اسمع .. انى أحيانا أكون نشوانة لدرجة أننى أشتهى أن أجرى عريانة فى الشارع .. لا .. لست عريانة تماما ، وانما بالمايوه .. وأتمرغ على الحشيش .. كنت أقول هذا لزوجى .. وكان زوجى يقول عنى : امرأة سافلة .. ويعطينى محاضرة فى الأخلاق والآداب العامة .. أنتم يا رجال مغفلون كلكم مغفلون .. كل شىء عندكم

عيب وحرام ومخل بالعرض والشرف .. الحياة كلها فى نظركم شرف رجل .. أية جريمة عندكم تغتفر .. الا أن يتلوث عرض أحدكم وتشتهى أخته عين أو تلمسها يد .. عمركم يضيع فى هذه الخرافة .. مغفلون .. أنتم تضعوننا فى أضرحة وتعبدوننا وتتبركون بنا .. ونحن بشر مثلكم تماما .. نتحرق على لمسة ونظرة وقبلة .. ونكلفكم ملايين الجنيهات سنويا ثمن روج وبودرة ومانيكير ونحول الشوارع الى معارض اغراء تحت سمعكم وبصركم .. وأنتم تتأججون بالغيرة لأنكم حمقى لا تفهموننا .. اننا ليس لدينا فكرة اطلاقا عن حكاية العرض المقدس هذه .. ولا نفكر اطلاقا فى أن نحمى شفاهنا من القبلات ونحمى أجسادنا من النظرات .. ونحن نفعل هـذا لنضحك عليكم .. ثم نعيش حياتنا الخاصة من ورائكم كمـا نحب ونشتهى .. يا دلاديل .. يا بلهاء ..

ــ أنت أسفل امرأة عرفتها .. ولولا أنك تقولين هـذا الكلام وأنت سكرانة ومسطولة لضربتك ..

ــ يا طفلى الصغير .. انى لم أكن فى وعيى أبدا .. كما أنا الآن .

ــ أنت تخرفين .. ولو كنت زوجتى لشنقتك ..

ــ لو كنت زوجتك لما علمت شيئا عنى .. لأنك أبله .. ولأنفقت عمرك فى عبادتى .. واغلاق النـوافذ والأبواب حتى لا تطولنى الشمس ولضيعت حياتك وعقلك فى الغيرة .. على مدامتك المحصنة .. فاطمة ونطقت الكلمات الأخيرة فى خلاعة وتبذل .. فقلت لها فى غيظ :

ـ أنت أحط زوجة فى الدنيا .. هل هذا هو التقدم المنشود الذى حلمنا به فى المرأة المتعلمة ؟! ..

ـ لابد أن نفعل شيئا لتفيقوا .. ان الحياة أوسع وأجمل من هذه النظرة التناسلية التى تعيشون فيها ، والنظافة التى تحلمون بها .. وأنتم أقذر خنازير !

واستبد بى الغيظ فى تلك اللحظة ونسيت أنها مريضة وأخذت أهزها بعنف : « أنت الخنزيرة .. أنت أكبر خنزيرة »

وأفلتت منى وأطلقت ضحكة هستيرية مجلجلة . وكان واضحا انها سعيدة جدا بهياجى وغضبى . ولكنى أمسكت نفسى وعدت الى هدوئى ..

ـ أنتم أطفال .. أتؤلمكم الحقائق الى هذا الحد .. لافائدة من اصلاحكم .. حسنا يا شيطانى الصغير . لا تغضب .. نحن نساء طاهرات محصنات عفيفات لا نرغب ولا نشتهى ولا نعجب ولا نحب ولا نحس .. نحن لفافة عرض موضوعة فى صرة .. نحن شرفكم المصون ..

وضحكت فجأة فى خلاعة وقالت بصوت مخدر :

ـ نحن شرفكم .. ها .. ها .. أليس هذا مضحكا ؟ .. حرصكم على أن نكون نحن شرفكم .. ان شرفكم أعمالكم يا مغفلون ، وليس نساؤكم..أليس عجبا أنكم لا تريدون أن تقبلوا هذه الحقيقة البسيطة .. آه لقد تعبت .. تعبت .. رأسى يبدأ يثقل .. حلمى .. ان دماغى ثقل جدا .. لا تتركنى انى أخاف أن أنام فلا أصحو ..

آه الغرفة تدور .. ضع يدك على رأسى أليس دافئا ..

وأخذت يدى ووضعتها على جبينها .. وتراخت أجفانهـا وبعد دقائق كانت تروح فى النوم .. وأنا الى جوارها .. وصدرها يعلو ويهبط .. وأنفاسها تخرج معطرة دافئة ..

وكانت يدها مازالت تتشبث بيدى.. وكانت تتقاذفنى احساسات كثيرة متضاربة .. ولكن منظرها وهى تنـام فى وداعة وقلة حيلة سلبنى ثورتى وغضبى .. فأخذت أنظر اليها فى حيرة وعجب .. أين ذهب البركان الذى كان منذ لحظات يقذف بالحمم .. أين نامت النار التى كانت تتأجج فى هذا الصدر ..

وكانت تمسك بيدى فى لطف ورقة .. وأحسست بالحنان رغما عنى . ونزلت بيدى على خدها وعنقها ولمست صدرها ثم سحبت يدى بسرعة وتمشت فى بدنى قشـعريرة .. وتذكرت ليلة دخلتى بزوجتى .. وكيف كنت أحاول أن أحل عقدة لسانى وعقدة غرائزى بأن أشرب الويسـكى .. وتذكرت الآن .. وأنا أحاول أن ألجم غريزتى ..

كانت هذه هى الشهوات الحقيقية .. أحسها لأول مرة .. كاملة .. عارمة .. ولا أدرى كم من الساعات ظللت أصارع نفسى وأنا جالس فى الكرسى أدخن .. ولكنى أفقت من هذا الصراع على صوتها فى الفجر يهمس الى جوارى وعينيها وهمـا تبحثان عنى .. وذراعيها وهما تضمانى وتجذبانى الى جوارها فى ضعف ..

وسمعتها تهمس وهى تحتضننى :

ـ انك رجل غريب .. ان جسمك بارد مثل الضفدعة ..
وجذبتني من عنقي .. في دلع .. وغمرتني بالقبلات ..

***

كل ما أذكره وأنا عائد الى بيتى هى كلماتها الأخيرة وهى تودعنى قائلة : « أنت خنزير قذر .. وستقول لزوجتك ذلك .. أم أنك ستكذب » ومنظر وجهها وهى تقبلنى فى مزيج غريب من السخرية والحب هامسة :

ـ أما زال فى نيتك أن تشنق زوجتك اذا ضبطتها فى أحضان رجل آخر .. أم أنك فقدت الشجاعة .. وفقدت الشرف أيضا ؟! ..

ولا أعرف بالضبط ماذا فقدت فى ذلك اليوم .. ولكنى تغيرت كثيرا .. ولعلى فقدت خوفى ..

ولعل شيئا قد تغير فى شكلى ومنظرى أيضا .. لأن زوجتى قد لاحظت ذلك وقالت فى قلق :

ـ مالك .. شكلك متغير ..

ـ لا شىء ..

ـ تعبان ؟ ..

ـ أبدا ..

ـ الأستاذ عزيز سأل عليك ثلاث مرات بالتليفون ..

وأمسكت بالتليفون وضربت النمرة .. ورد الأستاذ عزيز فى شوق :

ـ أهلا يا أخى .. انت فين .. أنا أبحث عنك من الصبح ..

ـ كنت فى مشوار ..

ـ طيب تعال .. اخطف رجلك وتعال ..

ولم أفكر فى سؤاله عن سبب هذه الدعوة المفاجئة .. ورحبت بهذه الفرصـــة التى تبعدنى عن بيتى قليلا .. وخرجت لتوى .. أدق الباب على جارنا عزيز .. وفتح لى عزيز بنفسه .. وقادنى من يدى الى غرفة داخلية وعرفت من الوهلة الأولى لماذا كان عزيز يبحث عنى طول النهار .. كانت برتيتة قمار حامية تدور رحاها فى الغرفة ..

وقدمنى عزيز الى ثلاثة لاأعرفهم .. الأستاذ فلان .. فلان .. فلان والفلان الوحيد الذى أحفظ صورته الآن هو اللاعب الذى كان يجلس فى مواجهتى وهو رجل نحيل ممصوص له شارب كث يغطى فمه ..

وجلست ألعب وأكسب .. وأقرقر فى سعادة كالقطة التى أكلت جيدا ووجدت مكانا لينا دافئا تتمدد عليه ولم أكن أفكر فى شىء ولم أكن أرى شيئا سوى الورق فى يدى .. وأبو شنب الجالس أمامى كالصنم .. يسبح فى موجة من الدخان ..

وسمعت صوت البيانو آتيا من الغـــرفة البعيدة .. كانت نانى تعزف .. نفس المقطوعة التى عزفتها يوم عيد ميلاد ابنى ..

وكانت الأنغام تأتى الى أذنى رقيقة حزينة ..

أين سمعت هذه الأنغام ؟ .. آه .. تذكرت الآن انها مقطوعة الطائر السجين لفرناندو ..

وكانت الأنغام حزينة جدا .. متعالية مترفعة .. كأنها بكاء اله فى

سجنه .. وقطع عزيز الصمت قائلا :

ـ أتعرفون لماذا نحب القمار ؟ ..

وقلت فى هدوء وأنا ألعب :

ـ لا أعرف .. ولا أريد أن أعرف ..

وقال أبو شنب :

ـ ان ألذ أوقاتى هى التى ألعب فيها القمار .. انى أنسى كل شىء .. زوجتى .. وأولادى .. وبيتى .. وعملى .. وأمسى ويومى وغدى .. أليس هذا هو أجمل شىء فى الدنيا .. ؟!

ـ نعم .. ولكنك تدفع دمك ثمن هذا النسيان ..

ـ انى أنسى حتى هذا أيضا ..

وفى الحقيقة لم أكن أعلم لماذا أحب القمار .. ولكنى كنت أحس أن كل لحظة أثناء اللعب تبدو لحظة مهمة جدا بالنسبة لى .. وهذا فى نظرى سبب كاف لأحب أى شىء ..

وضايقنى أن أفكر هكذا .. وفقدت شهيتى للعب .. فأهديت الجنيهات العشرة التى كسبتها لعزيز .. وجلست وحدى بعيدا .. أتفرج عليه وهو يخسرها ثم يكسبها .. ثم يخسرها من جديد .. ثم يكسبها .. ثم يخسرها .. ثم يكسبها .. ثم يخسرها .. ثم يكسبها

وكان قد بدأ يصبح عصبيا .. وأصبح يريد أن يتخلص منها فيخسرها الى الأبد .. أو يلقى بها من النافذة .. !

واستبدت بى رغبة فى الضحك ، فضحكت بصوت عال .
والتفتت الى أربعة وجوه فى وقت واحد .. فى دهشة ..

ولم أكن أعرف أن منظر القمار من بعيد يبدو مضحكا الى هذا الحد .. ولكنه فى الحقيقة كان يبدو لى فى تلك اللحظة مضحكا جدا ..

وأشـد ما كان يضحكنى هو منظرهم ، وسحنتهم المقلوبة .. وأعصابهم المشدودة ..

ماذا يريدون بالضبط ؟! .. وماذا أريد أنا أيضا ؟! .. وعاد الطائر السجين يغرد .. بأنغامه الحزينة ..

وانقبض قلبى بشدة كأن يدا من حديد قد أمسكت به واعتصرته، حتى كادت روحى تخرج منى ..

وأحسست فى تلك اللحظة أنى فى حاجة الى صاحبتى لأكلمها .. وأبكى على صدرها كالطفل .. وأقبلها .. وأحتضنها .. وأفقد وعيى بين ذراعيها ..

واستأذنت من الجماعة لأنصرف .. ونظر الىّ عزيز نظرته الى رجل غريب الأطوار .. وقلت له مازحا :

ــ ان جنيهاتى العشرة جنيهات منحوسة .. انك لن تستطيع أن تكسبها .. ولن تستطيع أن تخسرها .. ولن تستطيع أن تنفقها .. انها كاللعنة الفرعونية لا حل لها ..

وخرجت ..

وصافحت أنفى نسمات الصيف العليلة فآثرت أن أمشى وتركت عربتى فى الجاراج .. وسرت أستاف الهواء فى خياشيمى .. وأهز يدى جانبى .. وأنظر الى الناس .. وكل واحد فيهم يسير ملفوفا

فى مشاكله كأنه دنيا صغيرة .. لا يفيق منها الا لحظات ، يتلفت حوله . ها هو واحد يعرفه .. وأهلا وسهلا . كنت فين . مضى وقت طويل لم نرك . لابد أن تزورنا يا أخى .. ثم يعود فيغطس فى دنياه ويغلق باب قمرته . ويبحر الى الأعماق البعيدة فى نفسه ..

ويبحر .. يبحر الى أين !!؟

وتشوقت الى شاطىء .. الى حبيبتى .. كنت فى حاجة الى لحظة راحة .. لحظة سكون .. لحظة عدم تفكير فى أى شىء ..

ويبدو أنى مشيت كثيرا ، لأنى بدأت أحس بألم فى عضلات ساقى فاتجهت الى بيت فاطمة .. وكان أول شىء فعلته حينما وصلت أنى رفعت السماعة وطلبت زوجتى وقلت لها سأتغيب لمدة ثلاثة أيام فى سفر الى البلدة لأعمال ضرورية

وكانت فاطمة واقفة الى جوارى تضحك بصوت خافت وحينما وضعت السماعة قالت فى سخرية :

ـ لقد أصبحت خنزيرا عريقا فى الخنزيرية .. انك تكذب دون أن يطرف لك رمش .. هذه قدرة غير عادية ..

وكانت واقفة بقميص النوم .. أمام المرآة .. وكانت تبدو كحيوانة .. حيوانة لم تهذب فيها الثقافة شيئا . وانما أطالت أظافرها وشحذت غرائزها .. وأعطتها القوة .. والجرأة .. والوقاحة .. وتركت المرآة لتقبلنى فى فمى ..

وقلت أذكرها :

ـ ماذا ستفعلين فى قضية الوقف ؟ ..

فأجابت ضاحكة :

ـ انالوقف هو أنت وقد حللنا الوقف.. لم تعد خرابة موقوفة على زوجتك كما كنت زمان .. وانما أصبحت ملعب كرة .. أليس هذا انتصارا رائعا .. هل رأيت دفاعا يفوز بالحكم بهذه السرعة ؟ ..

ـ لا أظن أن الأمر قد تغير كثيرا .. فقد تحولت من خرابة موقوفة على زوجتى الى خرابة موقوفة عليك .. ومعنى هذا أننا سوف نحتاج الى محامية أخرى لتحل الوقف من جديد .. ان المشكلة ما زالت باقية ..

ـ آه .. ماذا تقول ؟ .. انى أذبحك .. وأتغذى على لحمك اذا حدث هذا .. ان القضايا عندى تخرج من يدى الى القبر قبل أن تخرج الى يد أخرى .. ان المرأة التى تنافسنى لم تخلق بعد .. هل تسمع ؟! ..

ـ هل أفهم من ذلك أنك تطالبيننى بأن أكون مخلصا ؟

ـ هل أفهم شيئا واحدا هو انى أحبك ..

ـ وهل يعنى هذا أنك تكونين مخلصة لى ؟ ..

ـ أوه .. هذه مسألة أخرى ..

وجذبتها من شعرها فى غيظ :

ـ تعال .. هنا ..

ونظرت الىّ ثم ضحكت ..

ـ يا صغيرى .. انك تصبح رائعا حينما تغضب .. انى أموت فى غضبك ..

وراحت تقبلنى وهى تهمس :

ــ انى أغيظك .. أثيرك فقط .. أنت تعلم كم أحبك ..

وقبّلتها فى شفتيها وأنا أقول :

ــ أنت امرأة مجنونة تماما .. وأنا أحبك لأنك مجنونة ..

ــ يا شيطانى .. يا طفلى الصغير الجميل .. يا حبيبى .. يا جنونى ..

ــ أحبك .. أحبك .. يا أحط امرأة فى الدنيا ..

ــ وأنا أعبدك .. يا أحط رجل فى التاريخ ..

ــ يا حيوانة ..

ــ يا مسكين .. لماذا تبدو دائما مسكينا حتى وأنت تقسو وتشتم . لماذا تبدو عيناك مسكينتين وأنت تكذب وتخطىء وتأثم .. لماذا تبدو بريئا تعسا دائما .. لماذا لا يفارق الأسى والحزن عينيك .. لماذا تبدو طفلا شقيا يتيما . ان ضعفك يفقدنى صوابى . كم أتمنى أن أفهمك . كم أتمنى أن أسعدك . لماذا تبدو قلقا مشتتا هكذا . انك تنظر الىّ كأنك لاتعرفنى .. تنظر الىّ بلا عقل .. بلا أمل . ما الذى يعتصر قلبك ؟ .. ما الذى يوزع خواطرك هكذا ؟ .. ما الذى يبلبل تفكيرك ؟ ..

وأخذت تهزنى بشدة :

ــ أنظر الىّ .. الىّ أنا .. لا تنظر هكذا كأنك تحملق فى الهواء .. حلمى .. حلمى ..

ـ ماذا أفعل وهذه هى حقيقتى .. ماذا أفعل ؟ .. أنا مسكين فعلا مسكين جدا .. جدا ..

وبكيت .. بكيت بحرقة على صدرها ..



— ٤ —

كانت فاطمة تجلس وسط الغـرفة ملفوفة بفوطة وقد خرجت لتوها من الحمام .. وشـعرها كله مبتل ومرجّل ومعقوص الى فوق .. وهى تفـكه وتسرحه وتضع فيه البنسات .. وظهرها الى ناحيتى .. وأنا فى الفراش يجثم على أنفـاسى الملل .. وأتمنى من أعماقى أن تتركنى وحدى وتذهب الى أى غرفة أخرى ..

وسمعتها تدندن بفمها .. ثم تقوم وتذهب الى المطبخ . وتنفست الصعداء .. ونسيتها تماما .. ونمت .. لم أتذكر أنها معى الا حينما أيقظتنى وفى يدها كوب من عصير البرتقال ..

وكانت عيناها طيبتين وديعتين .. وقد انطفأت منهما الشراسة القديمة .. وحل محلها خضوع أليف .. وناولتنى الكوب .. وقبلتنى فى خدى وقالت فى رقة : « أتحبنى يا حلمى .. »

فقلت وأنا أغتصب الكلمات اغتصابا : « نعم .. »

وشربت الكوب فى جرعة واحدة ..

ونظرت الىّ فى عينى .. ولكنى أبعدت عينى عنها ..

وقالت فى نبرة حزينة : « أنت لا تحبنى .. »

فقلت فى هدوء وقد أحسست أنه لا فائدة من المضى فى الكذب .

ــ نعم ..

ــ اذن لماذا فعلت كل هذا .. ؟!

ـ لا أدرى ..

وسكتت لفترة طويلة ثم قالت فى ألم :

ـ ألن نلتقى بعد الآن .. ؟!

ولم أعرف بماذا أجاوب ..

ولأول مرة منذ عرفتها رأيت وجهها المتكبر يتضعضع أماسى ثم يتهاوى فى بكاء مر ..

وغمغت من خلالها دموعها :

ـ ألم تشعر معى بلذة .. ؟!

فقلت فى صدق :

ـ شعرت باللذة التى لم أشعر بها أبدا فى حياتى ..

ـ اذن لماذا تتركنى هكذا ؟ .. وماذا كنت تريد لتحبنى ؟ .. وتضعضعت الكلمات فى فمها من جديد ..

ولم أعرف بماذا أجاوب .. ولا ماذا كنت أريد منها .. ولا ماذا أريد من نفسى ..

ـ هل أنا قبيحة .. ؟!

وأزاحت الفوطة المبتلة لتكشف عن جسمها الجميل المندى بالماء .. وبحثت بعينى فى جسمها .. ذلك الجسم الذى كان يفتننى ويصيبنى بالدوار كلما لمسته .. وأحطتها بذراعى .. ولكنى لم احس بشىء اطلاقا .. وبحثت فى عينيها عن المرأة الجريئة المستهترة الوقحة التى كانت تنتفض بالتحدى ولكنى لم أجد غير امرأة منكسرة ..

وخيّل الىّ من نظرتها أن عمرها قد زاد عشر سنوات ..

ولم أعرف ماذا أحببته فيها ذات يوم .. ولا ماذا أكرهه فيهـا الآن ..

كل ما أعرفه أنى كنت أشعر بالملل .. وبحاجة شديدة الى أن أصبح وحدى

أما هى فكانت تنظر الىّ فى أمومة وحنان وتربت على كتفى قائلة :

ــ أنت مسكين .. ..

وتبكى وتمسح دموعها .. وتغمغم :

ــ ولكنى أحبك .. ولا أقوى على فراقك أبدا .. أبدا .. ولم يحدث أن أحببت رجـلا كمـا أحببتك .. ولا أعرف ماذا أفعل لتحبنى .. ماذا أفعل .. ؟!

وكفكفت دموعها وهمست فى حيرة :

ــ أريد أن أعرف ماهو الحب .. منذ أيام كنت ألهو معك كما ألهو مع أى رجل .. كنت فى نزوة شقاوة .. وكنت أتسلى .. وأقضى وقت .. كعادتى .. دائما .. وما أكثر الأوقات التى قضيتها كامرأة مطلقة فاضية ليس وراءها مسئوليات ولا مشاغل .. وكانت أوقاتى تنتهى .. وتنتهى معها نزواتها .. ولكن ها أنذا الآن أمام احساس آخر تماما .. وقت لايريد أن ينتهى .. ونزوة لاتريد أن تشبع .. ماذا حدث لأحبك .. وماهو سر هذا التعلق الذى يعذبنى .. وهذا أنت جالس أمامى .. ضجر ملول .. تتأفف .. وتكاد ترفضنى ..

ـ ولهذا تحبيني .. انه ليس حبا .. ولكنه كرامة مجروحة .. وأنوثة مهينة .. أنت تريدين أن تمدى فى هذا الوقت على أمل أن تنتهى الى نهاية تنصفك .. انه ليس حبا لى .. ولكنه حب لنفسك ..

ـ أنت مسكين .. أنت لاتصدق حتى هذه الحقيقة البسيطة .. انى أحبك .. ماذا أفعل لتصدقنى .. ؟!

ـ أنت مدمنة لحظات سعيدة ليس الا .. أنت مدمنة دنيا .. مدمنة « مخدرات » اسمها الرجال .. أليست هذه هى فلسفتك وكلماتك بالحرف .. وها أنت تقولين الآن أنك تحبيننى وتذوبين حبا ..

ـ انى أحس باحساس جديد .. لم أعرفه أبدا ..

ـ أليس من الطبيعى أن نشك دائما فى الأشياء الجديدة ؟ .. وخصوصا حينما تكون غير طبيعية وغير متمشية مع شخصياتنا ..

والحق انى كنت أشعر بشىء مافى شخصيتها لا أرتاح اليه .. شىء غير طبيعى ..

لم تقو اللذة الجسدية التى جمعتنا ثلاثة أيام متوالية على أن تتغلب على هذا الشعور .. وظلت علاقتى معها بالجسد وحده .. بينما روحى تهوم بعيدة نافرة .. !

وكانت لذاتى يعقبها الضيق والندم والهوان .. لأنى تركت جسدى يسوقنى ويجرنى كالدابة ..

وكنت أفيق أحيانا .. فأتمنى أن أخرج .. أهرب ولو من النافذة .

وحينما ضعفت فى لحظة .. وبكيت كالطفل .. وكشفت لها عن

عذابى .. خجلت ..!

خجلت جدا كأنى تعرّيت أمام انسان غريب لا أعرفه ..

وأحسست بما هو أكثر من الخجل .. بالكراهية .. وبالنفور منها لأنها رأت ضعفى هكذا خلسة .. وساورتنى الرغبة فى الفرار ..

ولم يعد وجودها حولى يسعدنى .. وانما أصبح يفضى بى الى توتر مبهم لا أدرى سببه ..

أنا مسكين .. نعم مسكين .. مسكين ..

ولكنها انسانة غريبة لا أعرفها .. فلماذا تدخل غرفتى الخاصة .. وتنكش فى أدراجى .. وتعبث فى نفسى ..

أنا لا أريد عطفها ..

وكانت تبكى فى هذه اللحظة .. ولكنى لم أكن أسمعها جيدا .. كنت أسمعها بأذنى فقط .. ولكنها لم تفقد الأمل .. وسمعتها تقول فى مرارة :

ــ هذه أول مرة فى حياتى .. يفعل بى رجل مافعلت ..

وضايقتنى هذه الملاحظة .. هل تريد أن تفهمنى أنها كانت مناورة منى .. وعادت تقول فى مرارة :

ــ كنت أنا التى ألهو بالرجال .. كنت أنا التى أرفضهم .. وأكسر قلوبهم .. ماذا حدث لى .. ؟!

وأخذتها الكبرياء فجأة فهبت واقفة ثم تركت الغرفة .. وغابت فترة طويلة عادت بعدها بكامل لبسها ووقفت تضع الروج أمام المرآة .. وهى تقول فى جفاف :

ـ أنا أكرهك .. ومن أنت حتى أحبك ؟! . أنت رجل مثل أى رجل .. انى أستطيع أن أعود كل ليلة بحفنة من أمثالك ..

ثم ضحكت ضحكة رنانة وأردفت :

ـ هل صدقت حينما قلت انى أحبك ؟ .. انى أضحك عليك .. وتلك عاداتى دائما حينما أريد أن ألهو .. فأنتم لايعجبكم الا الكذب لأنكم أنتم أيضا كذابون وعواطفكم كاذبة ..

وسكتت فجأة لتقول :

ـ أتظن أن هناك فى الدنيا شيئا اسمه حب .. ؟!

وأجبت فى اخلاص :

ـ لا أدرى ..

ـ هناك ليال كتلك التى قضيناها معا .. يذهب بعدها كل واحد إلى حاله .. ولا يوجد شىء غير هذا .. أما بقية الأشياء التى يرويها الناس فهى أكاذيب .. الوعود أكاذيب .. العواطف أكاذيب .. الاخلاص كذبة تستعبدوننا بها لنكون لكم طول حياتنا ثم تلعبون أنتم على كيفكم ..

وأحسست أنها عادت فأصبحت فاطمه .. التى عرفتها ..

وأحسست أيضا .. أنها تكذب .. وأنها أيضا كانت تكذب .. وأنها دائما تكذب ..

وان هذا الشىء غير الحقيقى فيها هو الذى ينفرنى ..

وأن هذا الشىء هو المسافة الشاسعة التى ظلت قائمة بيننا .. والهوة

التى لم تستطع لذة الجسد أن تعبرها لتوثق بيننا أواصر الحنان والمودة ..

ونظرت اليها .. هذه المرة فى عطف .. فقد كانت هى الأخرى مسكينة .. وكانت تمشط شعرها فى المرآة .. وتمضغ اللادن فى صوت مسموع .. وتطرقع بأسنانها وهى تمضغ .. لتحدث صوتا ..

وكان سكوتنا ثقيلا كريها .. وكان يشوش على آذاننا أكثر من الضجة .. !

وقمت من الفراش .. وبدأت أرتدى ثيابى ..

وحينما نظرت الى المرآة .. لم يعجبنى وجهى .. كان يبدو بليدا ..

وتذكرت اللحظة التى دخلت فيها منذ ثلاثة أيام حينما نظرت الى وجهى فى نفس المرآة .. وكان يبدو مشحونا بشىء آخر .. أمل .. أو حلم .. أو نشوة .. !

كان أجمل بكثير من الآن ...

ونظرت اليها .. كان وجهها هى الأخرى معتما . !

واتجهنا الى الباب فى وقت واحد ..

كان كلانا يشعر برغبة فى الخلاص ..

وعند الباب تصافحنا فى برود ..

ثم تبادلنا نظرة طويلة .. هى مزيج مختلط مشوش من كل المسرات والآلام التى أحسسنا بها طيلة هذه الأيام الثلاثة ..

وبقينا لحظة صامتين .. ثم انصرفت مسرعة ..

وخرجت لأمشي بدون وجهة .. وأنا أشعر فى داخـلى بحرية لا نفع لها ..

وتذكرت ميعادى مع الخـواجة مترى .. التاجر العجـوز فى البورصة ..

ونظرت الى ساعتى .. كان باقيا على الميعاد نصف ساعة ..

ومشيت فى هدوء فى طريقى الى البورصة ..

ترى ماذا يريد منى الخواجه مترى .. ؟!

وفى البورصة كان مترى واقفا ينظر فى ساعته بعصبية وينظر الى الباب .. وحينما رآنى تهلل وجهه وأخذنى تحت ابطه .. وخرجنـا

وسألنى عن مشاريعى وعن حال الزراعة والأرض فى الصعيد .. وقلت :

ـ الأحوال بخير ياخواجه ..

فضحك وهو يجاوبنى :

ـ انت دائما تنادينى ياخواجه .. الظاهر أنك تعتقد أنى خـواجه صحيح ..

ـ ان مظهرك خواجه فعلا .. !

واستغرق فى الضحك ثم أردف :

ـ ياحبيبى أنا صعيدى بن صعيدى .. يظهر انك لم تذهب الى الصعيد أبدا .. انهم هناك يسمون الذى يلبس بدله خواجه . . لقد عشت فى الصعيد أربعين سنة .. ولى ذكريات مع والدك حينما كنـا نكافح معا هناك أيام الشباب ..

وأخذنى الى مكتبه .. وأشعل سيجارا .. وبدأ يتكلم فى نبرة جادة :

ـ نقد استدعيتك لأعرض عليك فكرة مشروع نشترك فيه سويا .. انى آفكر فى افتتاح مكتب للتصدير والاستيراد برأس مال ثلاثين ألف جنيه .. مارأيك .. ؟!

ولم أجاوب .. وانما أخذت أفكر وقال هو :

ـ طبعا انت فرحان بالفدادين التى ورثتها .. وكل همك أن تنام عليها مثل كل الأعيان .. اسمع كلامى ان الأرض لم تعد وسيلة للمكسب .. ان مكسبها الآن تعبان .. وخصوصا لمن يؤجرها مثلك انى أعرف الصعيد وأحواله . اننا الآن فى سنة ٥١ والأزمة فى قمتها .. الفلاح يستأجر الأرض الآن ولا يسدد شيئا من ايجارها لسبب بسيط لأنه مدين بكل شىء .. مدين بسقى الأرض لصاحب وابور الماء ، ومدين بتسميدها لوكيل شركة عبود ، ومدين بزراعتها لبنك التسليف .. حتى محصولها باعه سلفا بالبخس للمرابى على سلفة عشرة جنيهات يعيش بها .. وفى النهاية وبعد كل هذا الكدح يكسح النيل زراعته ويغرقها .. ماذا تستطيع أن تفعل أنت أيها المالك مع مثل هذا الفلاح .. ان كل ماتقدر عليه هو أن ترفع عليه قضية اخلاء .. ثم تأخذ حكما بالاخلاء .. ثم لايجد الفلاح حلا سوى أن يطلق عليك الرصاص .. أو يستأجر عليك الخط وعواد .. وهذه آخرة الأرض .. ومشاكلها .. !

انك لا تعرف الفلاح فى الصعيد .. انه مازال يستشير حمارته كل

يوم وهو ذاهب الى السوق .. ويسألها هل يبيع القمح أم لا يبيعه .. فاذا رفست برجلها .. عاد أدراجه ولم يبع شيئا .. !

وأنت تريد أن تضع رزقك وعمرك وأرضك فى يد هذا الفلاح .. وتنتظر أن تصبح غنيا .. كلام فارغ .. اسألنا نحن .. نحن جرَّبنا من قبلك كل هـذه الأشياء .. ان سر الغنى فى التجارة .. وليس فى الزراعة ..

ــ وماذا تريدنى أن أفعل .. ؟

ــ تتخلص من هذه الأرض النحس وتشتغل معنا فى المكتب ..

ــ واذا لم نجد شيئا نصدره أو نستورده .. وأنت تعلم ظروف التجارة الخارجية وقيودها ..

فضحك ضحكة صفراء .. وقال :

ــ نبيع أذونات الاستيراد نفسها .. ونتاجر فيها .. !

فقلت فى تردد :

ــ ألا يعتبر هذا عملا غير قانونى ؟

فضحك ضحكة أكثر اصفرارا وأردف :

ــ وأى شىء حولك قانونى ؟.. ان كل شىء غير قانونى .. ان المال الذى تعيش منه غير قانونى .. !

ان المائة فدان التى ورثتها عن المرحوم والدك .. كان شراؤها على يدى . وكانت نقودها من ألاعيب البورصة التى قمنـا بهـا بالاشتراك مع سماسرة فاروق وانتهت بافلاس أكبر البيوتات التجارية والحكاية كانت لها صدى فى كل الجرائد .. ولم تكن قانونية بالمرة ..

لقد كتبنا عقودا بأكثر مما نملك من أرصدة قطنية .. وهذا تزييف .. وهكذا ارتفعت الأسعار بالكذب .. وكسبنا ألوف الجنيهات والفدادين !

ويظهر أنه لاحظ الحرج الذى بدا على وجهى فأسرع يقول :

ـ وهذا حال التجارة دائما .. ليس فى التجارة شىء اسمه قانون .. التجارة فى حقيقتها هى تنظيم النصب .. والاثراء بعقد الصفقات على الورق فقط بدون شقا .. وبدون عرق ..

حينما يكون لك مكتب استيراد وتصدير فانك سوف تشارك فى ربح المصنع وربح الدكان .. دون أن تعمل شيئا أكثر من أن تجلس على مكتبك وتحرر عقودا .. أليس هذا أفضل من المناكفة مع الفلاحين المعدمين فى الصعيد . .

ان النصب فى كل مكان حتى فى الزراعة .. وأنت حينما تقاضى فلاحا مدينا لايملك سوى ذراعيه وتخرجه من أرضك .. ألست نصابا ؟!

ان النصب فى كل مكان .. يظهر انك جديد على أمور الدنيا ..

ان الدنيا ياحبيبى نصب فى نصب ..

فكر فى المشروع الذى عرضته عليك .. لقد كنت أحب أباك وأتفاءل بالعمل معه .. وأنا أريد أن أتعاون معك .. سوف أتركك يومين ثم أكلمك مرة أخرى ..

وصافحنى .. وأوصلنى حتى الباب . .

وخرجت .. وكل شىء يدور فى دماغى كالدوامة .. !

وكان الحديث القصير الذى تبادلته مع الخواجه مترى صـدمة لأعصابى ..

فقدت الكثير من ثقتى .. وايمانى .. دفعة واحدة ..

وأحسست بالقسوة الشديدة ..

كان كلام الخواجه مترى فيه قسوة .. سودت الدنيا فى وجهى

كان فيه اتهام لوالدى .. ولثروتى .. وللنعمة التى أمرح فيها .. لا فائدة .. الدنيا نصب فى نصب .. تماما كما تقول فاطمة .. !

هل صحيح أن الدنيا نصب فى نصب ..؟

الحق أنى لم أجد حجة أقيمها على كلامه .. !

أنا نفسى كنت أقوى اثبات لهذا الكلام .. فمنذ ثلاثة أيام وأنا أخون زوجتى مع امرأة لا أحبها بدون سبب واضح ..

ومع هذا فقد كنت أشعر أن كلامه كذب .. كذب .. الدنيا ليست شرا كلها .. ولا أنا شرير كلى ..

القلق يهزنى فى داخلى .. أنا أتعذب ..

كلنا نتعذب .. ونبحث عن حل على قدر فهمنا ..

وذهبت الى بار ماسبيرو .. وطلبت كوبا من النبيذ .. وكانت الوجوه حولى تثبت لى أننا جميعا مساكين ..

كان كل واحد يحملق فى الهواء .. كأنه يطارد ذبابة وهمية ..

وجلست أحصى الزجاجات على الأرفف .. وأحصى الوقت الذى تستغرقه الزجاجة لتفرغ .. وأحصى فى دماغى عدد الشوارع وعدد البارات .. وعدد سكان القاهرة .. وعدد سكان العالم .. وما يشربه

الناس من السم كل ساعة ..!

وكانت نتيجة الاحصاء مضحكة .. خمسة ملايين زجاجة ويسكى يشربها سكان العالم كل ساعة .. ألا يبعث هـذا على الاشفاق ؟

وأخرجنى البارمان من تصوراتى ، وهو يملأ كوب النبيذ قائلا :

ـ أتعرف مم يصنعون هذا النبيذ الفاخر ؟.. لقد رأيت العنب بنفسى فى بوردو . كل حبة مضيئة .. كأن الشمس معبأة فى داخلها ..

ـ أنا لم آت هنا لأشرب الشمس .. لقد جئت لكى آخذ ضربة على رأسى .. ابحث لى عن نبيذ آخر مصنوع من الصرم القديمة ..

وضحك البارمان وقرب منى صحنا به جامبون .. وهو يهمس :

ـ وهذا جامبون طعمه كطعم القبلات ..

ووقف ثلاثة من الشحاذين يعزفون البيانولا أمام البار ، وبدأوا يلعبون .. ويصرخون .. ويضحكون .. ودخل أحدهم يجمع القروش فى قبعته وكان وجهه مدهونا بالسيداج وعليه لطعتان حمراوان ، وكان فمه يضحك .. ولكن عينيه كانتا حزينتين جدا ..!

وكان طعم الجامبون ألذ من طعم القبلات فى فمى . وكانت الموسيقى سخيفة ، ولكنى طلبتها مرتين حتى تصدعت رأسى .. وكان البارمان واقفا أمامى يلوى شفتيه فى اشمئزاز :

ـ ماالذى يعجبك فى هذه الدوشة .. ؟

ـ ان مفعولها أسرع من مفعول نبيذك الفاخر .. !

ـ انك لن تعرف طعم نبيذى وأنت تشربه هكذا وحدك على أنغام البيانولا .. أنت فى حاجة الى غادة هيفاء عيونها سود .. تنظر اليك

وتنظر اليها .. والى شيء هنا فى قلبك يأكله من الداخل ..

ـ حينما يكون هناك شيء فى قلبى يأكله .. فان كل شيء أشربه سوف يتحول الى نبيذ .. سوف تكون المياه العادية نبيذا .. لن أكون فى حاجة الى من يعصر لى عنب بوردو ويعبىء لى الشمس فى زجاجات سوف أكون أنا الشمس التى تشع فى كل الزجاجات . احمد ربنا ياخواجة على أن قلبى فارغ .. وانى آكل بعضى . فلهذا جئت اليك .. ولهذا يأتيك الزبائن كل يوم ، وتجد رزقك ..

ـ أنت فيلسوف يا أستاذ حلمى ..

ـ أتظن ذلك .. ؟!

ـ وهذا مفعول نبيذى أيضا فهو يصنع فلسفة فى المخ .. ان كل الفلاسفة متخرجون من عندى .. !

وجرعت الكوب دفعة واحدة .. والظاهر أنى كنت أريد أن أتخرج بسرعة .. واختفى البارمان .. ونسيت أن أسأله .. أين يذهب المجتهدون فى الشرب .. هل يصبحون أساتذة فى الفلسفة .. أم يصبحون مجانين ؟!

وكان فى الركن رجل عجوز أمامه زجاجة براندى كاملة .. وكان يتحرك بصعوبة .. ويسعل سعالا جافا .. ويصب فى جوفه الكأس بعد الأخرى ..

وحينما كنت أعود فى المساء الى بيتى .. ويداى فى جيوبى .. كنت أسأل نفسى : ما الذى يجعل هذا العجوز يجلس كل يوم ويفرى كبده هكذا .. ؟!

وكنت أرى فى الظلام وجهه الترابى المريض .. وأسمع سعاله الجاف وأتذكر كلام الخواجه مترى .. بأن كل الناس وحوش .. يفترسون بعضهم البعض .. ولا أصدقه .. لا أصدقه أبدا ..

اننا نقتل أنفسنا .. نحن مساكين .. !

ودخلت البيت .. وغمرنى الضوء الشديد فى الصالة .. واستقبلتنى زوجتى متهللة .. وسألتنى عن حالة الزراعة فى البلد ..

وتذكرت أنى كذبت عليها لأتغيب هذه الأيام الثلاثة .. وأجبتها وأنا أتجنب النظر فى عينيها :

ـ كل شىء على مايرام ..

ـ وماذا فعلت مع علوان .. ؟

ـ ومن هو علوان هذا .. ؟

ـ الرجل الذى أحرق الذرة .. لقد حسبت أنك حضرت الحادثة ..

لقد وصل خطاب من البلد وفتحته على أمل أن يكون خطابا منك ولكنه كان من ناظر العزبة يروى فيه ماحدث من علوان .. وحادث احراق الذرة ..

فقلت بارتباك :

ـ آه .. هذه الحكاية .. لقد سووها حينما وصلت والحالة الآن هادئة تماما ..

وقالت وهى تضم يديها الى صدرها :

ـ الحمد لله .. لقد كنت قلقة عليك ..

ولم يبد عليها أنها تشك فى شىء ..

وكانت غرفة الاستقبال مضاءة وقالت لى أن مدام عزيز عندنا .. وأنها سهرانة عندنا الليلة لأن زوجها مسافر الى الاسكندرية .. وصاحت : نانى .. نانى .. لقد جاء حلمى .. وخرجت نانى .. وكانت تلبس فستانا أسود وتضع على كتفيها وشاحا أحمر ، وكان الوشاح الأحمر يلمع على جسمها الصغير كأنه فص من العقيق ..

وتصافحنا .. وعادت الى مقعدها وكان فى يدها « بلوفر » تشتغل فيه .. وكانت تنحنى على التريكو وهى تعمل ويتدلى شعرها كالبارفان فيخفى وجهها .. ومن حين لآخر كانت تمد يدها وتزيح شعرها فتبدو أهدابها الطويلة تختلج فى اضطراب .. وكنت أحس وأنا أنظر الى أهدابها أنها تفكر .. وأن عقلها يضطرب وراء تلك الأهداب .. وقلت لأخرجها من صمتها :

ـ لقد سمعتك تعزفين البيانو كأعظم موسيقية فى الدنيا ..

فرفعت رأسها الصغير وابتسمت وتورد خداها .. ونظرت الى فى امتنان .. ولم تتكلم .. وقالت زوجتى :

ـ انها ترسم أيضا .. ولها أشغال « كانفاه » رائعة .. انها فنانة .. أنظر هذا مفرش اشتغلته لنا ..

ـ رائع .. رائع .. أين تجدين الوقت لعمل هذا كله .. ؟!

وصمتت نانى لحظة قبل أن تجيب ، ثم قالت وهى تنظر الى الأرض :

ـ ليس فى الدنيا شىء أكثر من الوقت .. ان لدى دائما وقتا طويلا .. طويلا .. أريد أن أتخلص منه ..

ورفعت رأسها لتنظر الى نظرة خاطفة ثم عادت تعمل فى سرعة وعصبية .. ولكن هذه اللحظة كانت كافية لأن أرى عينيها ..

أرى الوحدة .. والغربة .. والاستسلام الحزين الكامن فيهما ..

وكانت تتكلم بصوت خافت كأنها تكلم نفسها ..

ولم أعرف ماذا أقول بالضبط ..

ولكن كنت أتمنى أن أسمعها تتكلم أكثر .. ولكنها صمتت وعادت الى التريكو .. وقامت زوجتى لتحضر الشاى ..

وقمت الى البيانو وفتحته .. وبدأت أعبث فى مفاتيحه ..

ــ أجمل شيء فى الدنيا أن يكون الانسان موسيقيا .. أنا كنت طول حياتى أتمنى أن أكون موسيقيا .. كانت هذه أمنيتى ..

وأخذت أعبث برهة ثم قلت :

ــ ألم تكن لك أمنية .. وأنت صغيرة .. ؟

وفوجئت بهذا السؤال :

ــ أنا ؟!! ..

وترددت لحظة .. ثم قالت فى وداعة وهى تبتسم :

ــ كنت أتمنى أن أكون ولدا .. فقد كنت أرى الأولاد حولى يفعلون كل شيء . وأنا والبنات نستأذن لنفعل أى شيء .. حتى اذا أردنا أن نشرب ..!

وجاءت زوجتى بالشاى .. وأخذنا نشرب فى صمت .. وطلبت من نانى أن تعزف لنا شيئا .. وجلست نانى لتعزف مقطوعتها المفضلة .. وكنت أقف أمامها متكئا على البيانو أنظر الى أهدابها وهى تختلج ..

ولفنى النغم فى موجة من الحزن ..

وسألتها : لماذا تعزف هذه المقطوعة دائما .. وبكل هذا الحزن ؟!.
فقالت أنها لا تدرى .. ولكنها حينما رفعت وجهها .. كانت عينـاها مكسوتين بغشاء رقيق من الدموع .. !



— ٥ —

كانت الشمس تنام الى جوارى فى شريط دافىء ممدد بطول السرير .. وكنت أغمض عينى وأحاول الاسترسال فى الأحلام الرقيقة التى أحلمها ، ولكن الضوء الشديد كان يؤلم جفونى ويدفعنى الى أن أفتحها وأفركها .. وكانت زوجتى الى جانبى تتكلم كلاما كثيرا لا أفهمه ، ثم سمعتها تبكى وتقول بصوت متهدج :

ــ أنا أعلم أنك حزين من أجل وفاة أبيك .. ولكن ماجدوى هذا الحزن .. منذ شهور ونحن نعيش بعيدين منفصلين كأننا غرباء .. هل أعاد حزننا الحياة الى الميت ..

وأفقت تماما على كلماتها .. وتيقظت .. ومسحت على وجهى .. وأنا أفكر فى كلماتها .. كلمة .. كلمة ..

هى تعتقد اذن أن عزوفى عنها سببه حدادى على والدى ..

ولم أعرف .. هل أفرح أم أحزن لهذه الطيبة .. وهل هى طيبة أم غفلة ؟!.. لو علمت زوجتى بكل ماحدث فى الأيام الماضية .. أتظل على طيبتها أم تبصق فى وجهى ؟!.

وتمنيت فى تلك اللحظة أن أقول لها كل شىء .. وأن أكاشفها بالحقيقة ولكنى جبنت .. ودخلت الخادمة . وكانت عيناها واسعتين من الرعب ..

ــ سيدى .. سيدى .. البواب بيخبط على شقة عزيز جارنا من الصبح ومفيش حد بيفتح .

ـ لازم خرجوا ..

ـ مش معقول ياسيدى .. عزيز مسافر والست لايمكن تخرج الساعة دى ..

وقفزت زوجتى من الفراش مرعوبة :

ـ صحيح .. لا يمكن أن تخرج نانى فى الساعة دى ..

وهرولت الى الباب .. وأنا أجرى خلفها .. والخادمة تعرج وراءنا.. ووقفنا ثلاثتنا ندق على باب الشقة بأيدينا فى وقت واحد .. ومرت دقيقتان .. وسمعنا صوتا خافتا يشبه الأنين .. واصفر وجه زوجتى وابيض حتى أصبح فى لون المنديل الأبيض .. وأخذت تهز الباب فى عنف ..

وترامى الى آذاننا صوت حركة بطيئة ، ثم وقع خطوات تقترب .. ثم تحرك المزلاج وانفتح الباب . وكانت نانى واقفة .. أجفانها ثقيلة وارمة وتحت عينيها غضون زرق .. وهى تنظر الينا فى دوار النوم . كأننا خيالات فى أحلامها ..

وكان جسمها الصغير يتطوح ..

وأخذتها زوجتى بين ذراعيها ودخلنا ..

كانت الغرف كلها نظيفة منظمة .. وكل قطعــة من الأثاث فى مكانها . وفى غرفة النوم كانت الأباجورة مضيئة .. وعلى الكومودينو الى جوار الفراش ، لاحظت أربع زجاجات لأدوية منومة مختلفة .. وكتاب لبلزاك مفتوح على الصفحات الأخيرة ..

كان من الواضح أنها تأخرت فى النوم وتعاطت دواء منوما لتعالج

الأرق .. فنامت والأباجورة مضيئة .. الى هذه الساعة من الصباح ..

وهذا كل ماحدث .. وأفرخ رعبنا ..

وجلست الى جوارها ألتقط أنفاسى .. وأنا أشعر بالحرج .. لقد سرقت منها النوم الذى توسلت اليه بالأدوية ..

وذهبت زوجتى لتعد كوبا من الشاى ..

وقمت أنا الى النافذة .. ألوذ بوحدتى من احساس ثقيل بالذنب ..

***

كنت أفكر فى الأربع زجاجات من الأدوية المنومة .. وأنا أقود عربتى بسرعة فى عصر ذلك اليوم .. وفى المقعد الخلفى كانت تجلس زوجتى .. وابننا ونانى .. وكنت أسمع نانى تضحك وهى تداعب ابنى .. وأشاهد صورتها فى مرآة العربة ، وشعرها المرتب فى بساطة ، وعينيها العميقتين جدا . .

وجلسنا فى كازينو على النيل .. وكان النيل فى الفيضان ، والمياه عالية كبطن الحامل .. وكنت أشعر بالسعادة وأنا أنظر الى المياه الحمراء وهى تجرى وتجرى كأنها دم فى العروق يتجدد كل لحظة ..

وكانت الشمس تميل الى المغيب .. والألوان تتغير بسرعة ، وتأخذ معها وهج النهار ، وتغطس فى بحيرة رمادية ..

وكانت العمارات على الكورنيش تنطمس رويدا رويدا وتذوب فى ذلك المخمل الرمادى ، فلا يبقى منها الا مساحة طويلة بطول الشاطىء .. مساحة قاتمة بلا معالم ..

وكنت أفيق من الخدر الذى يبعثه اللون الرمادي فى حواسى على صراخ ابنى وهو يجذب أمينة من ثوبها ويشاور بيده الصغيرة الى المراجيح فى آخر الكازينو ..

وأخذته أمينة .. وذهبت به الى المراجيح وهو ينط ويقفز ..

وبقيت وحدى مع نانى .. وكنت أنظر فى عينيها وهما يزدادان اتساعا مع الغروب كعيون القطط .. ويبعثان فى نفسى ، أكثر وأكثر ، ذلك الاحساس الغامض بالعمق .. وكنت أفكر فى زجاجات الأدوية المنومة على الكومودينو .. وسألتها فجأة :

ــ هل تتعاطين منوما على الدوام ؟

ــ أحيانا .. حينما يطول بى الأرق ..

ــ ولماذا يطول بك الأرق ؟

وسكتت .. ونظرت فى وجهى مترددة ، وقلت مشجعا :

ــ ليس هناك فى الدنيا شىء يستحق أن نهتم به .. كل شىء ينتهى .. الماضى يفوت .. والحاضر يفوت .. وأسوأ مستقبل مثل أحسن مستقبل يفوت هو الآخر .. ففيم القلق والأرق ؟ .. ولماذا نهتم بأى شىء ؟ ..

ــ أنت تتكلم كرجل عمره مائة سنة .. !

وعادت تنظر فى وجهى برقة وتردف :

ــ ومع هذا فأنت تهتم .. وتقلق .. من أجل أشياء كثيرة صغيرة أحيانا .. أليس كذلك ؟؟

ــ نعم .. أحيانا .. لا أنكر ..

ـ أترى أنه لا فائدة من الحكمة .. ؟

ـ ولكنى لا أحب أن تتعذبى مثلى ..

ـ أهو اهتمام آخر ؟ .. هل أنصحك أنا أيضا ؟ .. وأقول لك ان الماضى يفوت .. والحاضر يفوت .. وكل شىء يفوت .. ولاداعى للاهتمام والقلق بأى شىء أو بأى انسان .. !

وسكتت حينما رأتنى مستسلما حزينا ..

كنت فى الحقيقة محتاجا الى هذه النصيحة أنا الآخر .. وكنت أواسى .. نفسى بلا جدوى .. وضحكت ..

ولمعت عيناها على نبرة اليأس فى ضحكتى ونظرت الىّ ..

كانت تبادلنى نفس الاحساس المرير بالحيرة ..

ـ ماذا نريد بأنفسنا .. ؟!

ـ نعم ماذا نريد بأنفسنا .. ؟!

وأردفت فى حرارة دون أن تفكر :

ـ أنا أريد أن أحيا ..

ـ وحياتك التى تعيشينها .. ؟!

ـ وحياتى !! .. أى حياة تقصد .. ؟!

وسكتت فى يأس .. ولمعت عيناها بغشاء رقيق من الدموع .. ثم قالت فى صوت خافت :

ـ ربما أطلعتك على حياتى يوما ما .. انى أكتبها .. أحيانا أكتب من فرط اليأس .. ومن فرط الوحدة ..

وتأرجحت على شفتيها ابتسامة واهية ..

وكان يبدو عليها أنها تفكر وأنها مترددة ..

وتلاقت نظراتنا .. وكأن شيئا مايشدنا الى بعض ..

ولم تتكلم ..

وقطع صراخ ابني صمتنا .. وكان يجرى نحونا وينط ويقفز .. ومن ورائه أمينة ..

وجلست أمينة .. وجلس ابني الى جوارها .. وارتفع صوت الملاعق وفناجين الشاى .. وثرثرة الطفل ..

ولكنى ظللت مشدودا الى نانى طول الوقت ..

ولم يتغير الأمر كثيرا حينما عدت الى البيت ..

وحينما استغرقت فى أعمال مكتبى لعدة أيام متوالية لم يتغير الأمر كثيرا ..

ظللت مشدودا طول الوقت بحبال خفية .. بدنيا أخرى غير دنيا عملى اليومى ومصالح الطعــام والشراب وثرثرة كل يوم .. هى دنياها .. وجودها ..

ظلت ماثلة أمامى حاضرة فى ذهنى طول الوقت ..

وحينما ألقيت بنفسى فى فراشى آخر الليل ، كنت أسأل نفسى أية رابطة من حديد تربطنا .. وأتذكر علاقتى بفاطمة .. ان الأمر مختلف تماما .. ؟

ان وجود نانى الى جوارى يفتح لى عالما أليفــا أمشى فيه .. أمشى .. أمشى .. أمشى ..

وأشعر بالأغوار العميقة خلف عينيها ، تتكشف لى عن احساسات

أعانيها .. وآلام أعيشها وأعرفها .. وكأنى أدخل بيتى .. وأتجول في غرفتى .. وأجلس تحت ضوء مصباحى الأخضر ..

أشعر برغبة فى الافضاء .. وافشاء مكنونى اليها .. وفض أسرارى بين يديها .. ويخيل الى أحيانا أن بعض كلماتها تصدر عني .. وكأن الحاجز الذى يفصلنا سقط ، وانفتحت فيه ثغرة تتصل منها وتتخاطب ونمتزج ..

احساس غريب يخيّم عليه الأمان .. لاتستعجلنى فيه رغبة .. وانما يتصل فى نهر من الحنين دائم الجريان ..

هل كنت أجسّم لنفسى هذه المشاعر وأنا نائم بالليل ؟ ..

هل كنت أحلم وأتخيل ؟! ..

لا أدرى ..

ولكنى حينما تيقظت فى الصباح كنت أحمل هذه المشاعر معى الى مكتبى .. وأعود بها الى البيت .. وأنظر بها فى صندوق الخطابات .. وأنقب وأفتح كل الخطابات بلهفة .. وأبحث عن امضائها . وقد استولى علىّ شعور بأنها لابد مرسلة الأوراق التى تكتبها عن حياتها ، لأعيش معها ..

كنت أريد أن أعيش حياتها معها ..

***

كان الخواجة مترى يتحدث فى التليفون بلهجة انتصار .. وحينما وقفت فى النافذة أنتظره .. رأيته ينزل من عربة كاديلاك آخر موديل ويقتحم المكتب .. ثم يقف .. ويستنشق قواءه ويتلفت حوله بنظرة

ظافرة ويهتف :

ـ مارأيك الآن يا أستاذ ؟ .. لقد رفضت أن تشترك معنا فى مكتب الاستيراد .. وهــذه أول خبطة لنا بعشرين ألف جنيه . مارأيك .. تعال افتح دفاترك وقل لى ماذا كسبت من زراعة البصل فى هذه المدة بصراحة ؟ ..

ولم أنكر أنى لم أتلق مليما واحدا من البلد ..

ولم أنكر أن المكتب الهندسى الذى أديره فاشل ..

ولكنى أنكرت بشدة أنى نادم .. وأنى شاعر بأن نصف عمرى قد ضاع .. فأنا غير مقتنع بالعمل الذى يعمله ، وأنا مازلت غير مقتنع به .. وليست لدى فكرة المساهمة فيه ؛ والحكاية ليست حكاية فلوس ..

ـ الحكاية ليست حكاية فلوس .. أشكرك . هل تسمح وتتنازل لى عن فلوسك وأرضك وأطيانك وتستريح من عنائها .. وتعيش سعيدا بثقافتك .. ماهى الحكاية اذن ياصديقى .. ؟

ـ الحكاية هى أن أعيش كما أشتهى .. أكسب على طريقتى .. وأعمل العمل الذى أقتنع به ..

ـ وهل أنت مقتنع بزراعة البصل فى الصعيد ؟! ..

ولم أجب ..

ـ وهل أنت مقتنع بالفلوس التى تخسرها كل يوم فى المكتب ..؟!

ولم أجب ..

وقال الخواجة مترى :

ـ أنا أكلمك كأخ كبير وصديق حميم للمرحوم والدك .. أنا لاتعجبنى أحوالك . ولو تركت نفسك فى هذا الطريق فسوف تصبح على الحديدة بعد سنوات .. !

وخبطنى على كتفى قائلا :

ـ اسمع .. مازالت أمامك فرصة للاشتراك معنا . فكر .. أنا لا أريد أن أخسرك كشريك .. أنا أثق بك وأحبك .. اسمع كلامى .. الأرض نحس .. اخلص منها .. أنت لم تخلق للزراعة ..!

وخرج مترى ..

وحينما كان يدخل فى عربته الكاديلاك الفارهة ، وأنا أنظر اليه من النافذة .. كانت كلماته مازالت تقرع أذنى ..

هل أنت مقتنع بزراعة البصل فى الصعيد ؟ .. هل أنت مقتنع بالفلوس التى تخسرها كل يوم فى المكتب ؟ ..

والحقيقة أنى لم أكن مقتنعا بأى شىء من هذا .. أنا لم أخلق لهذه الأشياء .. لم أخلق للزراعة ولا للتجارة .. والحقيقة انى لم أكن أعرف لأى شىء خلقت .. ولم أكن أعرف ماذا أريد بنفسى ..

لم أكن أعرف الا مقدار خمس دقائق من مشوارى الطويل الذى أسميه الحياة ، هى وقوفى الآن فى مكتب هندسى فاشل لا أمت اليه بصلة ..

وأغلقت دفاترى وأغلقت النافذة .. ثم أغلقت الباب بعدم اكتراث ونزلت السلم .. وتركت نفسى أضرب فى الطريق من شارع الى شارع فى مشية متراخية الى بيتى ..

وتلقفتني الخيـالات التى كانت تصاحبنى منذ الصباح .. وتذكرتها وتذكرت عينيها . .وتلهفت على حديثها ..

وحينما وصلت الى البيت .. كان أول شيء نظـرت اليه هو صندوق البريد .. وهناك كانت حزمة من الأوراق تنام فى الصندوق وعليها اسمي وعنواني .. وقفز قلبى بين ضلوعى .. وانتزعتها فى لهفة وصعدت السلم وثبا .. ثم دخلت غرفتى وأغلقت الباب خلفى.. وفتحت الأوراق ، كانت منها .. وكانت مكتوبة بالقلم الرصاص فى عجلة وانفعال ..

وألقيت بنفسى فى مقعدى .. وبدأت أقرأ ..

***

أول شخص أعي عليه هو شقيقتى الكبرى والوحيدة .. وأول حادث أذكره هو حادث بين أختى وزوجها .. كل منهما يشتم الآخر ويلوح بيديه فى غضب .. ثم أختى مغمى عليها .. وأنا أصرخ بأعلى صوتي .. وسكان العمارة يهرولون لاسعافها .. وكان عمرى وقتها لايزيد على أربع سنوات .. وكان ذلك فى قنا مقر عمل زوج أختى مأمور الضرائب الذي يكبرها بثمانية عشر عاما ..

وبعد ذلك وعيت على أبي الطبيب الكبير الذى يخشاه كل فرد فى البيت ويرتجف منه .. وأنا لا أجسر على الوقوف أمام المرآة لأمشط ضفائرى خوفا منه فأدخل الحمام وأغلق بابه من الداخل وأسرح شعري ، وجو البيت المليء بالممنوعات .. ممنوع الخروج .. ممنوع الوقوف فى البلكون .. ممنـوع الذهاب لمنزل خالي الا

بصحبة أحد اخوتى .. ممنوع الذهاب الى السينما .. والسينما لم تكن ممنوعة فقط ولكنها كانت حراما .. لأن أبى شاهد مرة فيلما عربيا .. وكان رصاصة فى القلب .. فخرج ساخطا من نصف الفيلم وأخرجنا معه لأن البطلة التى كانت مخطوبة أحبت شخصا آخر غير خطيبها ، وسمحت لنفسها فى يوم عقد قرانها أن تختلى بحبيبها فى الشرفة وتبوح له بحبها .. وهنا ثارت ثائرة أبى .. وظل يلعن السينما والمبادىء التى تنادى بها .. واختتم ثورته بأن حرمها علينا ..

ولكنه بالرغم من شدته وصرامته .. كان طيبا حنونا يمرض الى جوارنا اذا مرضنا .. ويبكى لبكائنا .. ويطعمنا بيده .. ويغنى لنا .. على عكس أمى الجافية القاسـية وهى تخرج وتدخل على كيفها .. لاتشغلها الا شئونها ونزواتها وثيابها وزياراتهاوصديقاتها .. ولا يهمها ان كنا نموت أو نعيش .. !

وأذكر مرة .. بل عدة مرات .. دعواتهـا بأن يأخـذنا الله .. اثنين .. اثنين .. أى والله .. كانت تصرخ بأعلى صوتها .. لو كان ربنا يريحنى وياخدكو .. الهى يجينى خبركو .. وتطلعوا كل اتنين فى خشبة !!

لن أنسى هذا اليوم .. ونحن ننظر الى بعضنا فى صمت ونرمقها فى كراهية ..

وكانت أمى هى الصخرة التى تتحطم عليها صلابة أبى وشدته .. كان يقضى النهار فى الصراخ والشجار معها .. فاذا احتواهما الفراش

بالليل ذابت ثورته وذاب شجاره وتحول الى حمل وديع تهدهده على صدرها وتأمره وتلهو به كيف شاءت ..

وكنا نعلم نحن الصغار .. أن أمي تلهو بأبي .. وتمشي على كيفها ..

كنا فى أشهر الاجازة الصيفية نسافر كلنا الى العزبة .. ويبقى والدى فى القاهرة للعمل فى عيادته .. وفى العزبة كانت أمي تمرح على كيفها مع عمي العمدة الوارث الجميل الذى لا عمل له سوى ركوب الخيل واطلاق النار فى الهواء واصطحاب أمي بالليل والنهار .. وضحكاتهما ترن فى الحقول .. وخلف الأبواب المغلقة بالليل ..

وكنا نرى ونسمع ونسكت .. ولا يخطر على بالنا أن أبى يعلم من هذا الأمر شيئا .. حتى فوجئنا بعد سنوات بخناقة تهتز لها أرجاء البيت ، وأبى يصرخ بأنه سبق أن نبهها الى سلوكها المشين فى العزبة فلم ترتدع وتمادت فى علاقتها الآثمة .. وأنه لايجد أمامه وسيلة الآن الا الطلاق .. الطلاق فى سكون حتى لاتنضار سمعة العائلة ..

وكان معنى هذا الطلاق أن تظل أمي كما هى فى البيت .. ويزورنا هو كالمعتاد فى أيام أجازته على ألا تقع عيناه عليها .. ويكتفى بحرمانها من الميراث والمعاش .. حفظا لكرامته ..

وكان هذا يعنى فى نظر أمي أشد عقاب يمكن أن ينزل بها .. وانه لأهون عندها أن تحرم من بيتها ومنا ومن سمعتها على أن

تحرم من ميراثها .. فلم يكن لها هم سـوى جمع المال من أى طريق .. ولو أنها وجدت سوقا لتبيعنا فيها لباعتنا بأبخس الأثمان ..!

وبالطبع انتهت حكاية الطلاق كما تنتهى خناقات كل يوم بمجرد الدخول الى غرفة النوم .. وصافى يالبن .. حليب ياقشطة .. واللى كان .. كان ..

وتحول الأسد الى حمل وديع بعد أول قبلة .. وانتهى كل شىء .. وعادت المياه الى مجاريها ..

كان هذا هو حال أبى المسكين مع أمى .. وحاله معنا ..

وكنا نغتفر له ضيق صدره وعصبيته لأننا نعلم قلة حيلته ..

وأحيانا حينما كان يجمعنا حوله ليحكى لنا القصص .. كنت أرى عينيه تتنـديان بالدموع .. وهو ينظر الينـا .. ويضـمنا الى صدره .. وكان فى تلك اللحظات يغيّر موضوع الحديث .. ويبدأ فى اعطائنا درسا فى الوطنية .. ويغنى لنا : « يا مصر يا أم الدنيا حبك فى القلب سكن .. »

ونحن نغنى معه .. وهو يدير وجهه الى الخلف ويمسح دموعه ..

كم أحببت أبى .. كم أحببته .. !

وبلغت السادسة عشرة فى فبراير وبدأ أبى يلوح بوجوب امتناعى عن الذهاب الى المدرسة وبقائى فى البيت .. ولم تمانع والدتى على شرط أن يوافق أبى على زواجى ..

وتقدم لى فى هذه السنة ضابط شاب يكبرنى بعشر سنوات .. يتيم الأب والأم له ايراد خارجى غير وظيفته ، مستقيم لايشرب

الخمر ولا يلعب القمار ، وسمعته فى عمله نظيفة .. فقبله أبى وجاء لرؤيتى .. ورأيته شخصا عاديا ليس فيه شىء يلفت النظر .. أما هو فقد أعجب بى جدا

وامتدح جمال وجهى وعينى وشعرى الأسود الطويل وفمى الصغير وأسنانى المرصوصة .. ويوم ألبسنى الدبلة لم يفته أن يبدى اعجابه بأناملى وبطريقة عنايتى بأظافرى ..

وكنت سعيدة باطرائه لجمالى .. فهذه أول مرة أسمع فيها أنى جميلة جذابة ..

وداعبتنى الآمال ..

فى المستقبل سوف أستطيع الذهاب الى السينما .. وسوف أستطيع الضحك والغناء بصوت عال على كيفى .. وتسريح شعرى فى المرآة ووضع الأحمر على شفتى .. والخروج الى الشارع .. والذهاب الى المصيف ونزول البحر .. والسفر .. والسهر .. وألف متعة .. ومتعة ..

وجلس خطيبى يتحدث مع أخى .. وفهمت من حديثه أنه ينتظر الترقيـة .. وأنه ينتظر أن يعاونه والدى كطبيب كبير متصل بالسراى .. وأنه يعلق زواجه على هذا الشرط ..

وسقط فى نظرى .. وسقطت أنا أيضا فى نظر نفسى ! ..

ان الجميلة الفاتنة كانت الترقية .. ولم تكن عيونى .. !

وكأى رجل عادى يبحث عن صفقة .. كان خطيبى أيضا يبحث عن صفقة .. ويريد التقرب من السلطان عن طريق الزواج بى ..

لم يكن يريد التقرب منى ..

وغضبت كطفلة جرحت فى أحلامها ولويت بوزى .. وكرهته .. وكرهت الزواج .. !

وحدث فى ذلك الأسبوع أن جاءت أختى من البلد غضبانة من زوجها وأصرت على عدم العودة .. فهى لم تعد تستطيع الاحتمال أكثر من هذا ... مع زوج لاتحبه . ولا تطيقه .. زوج حاد المزاج ضيّق الصدر فى سن أبيها ..

وقامت القيامة فى البيت .. بكاء وصراخ وتشنجات من أختى .. وصراخ أشد وتهديدات من والدى .. واجتماعات مع خالى تنعقد وتنفض .

وبعد خمسة عشر يوما وافقوا على الطلاق ، على أنه درس فقط يعطونه لزوجها لكى يتأدب .. وفعلا طلقت واشترط زوجها أن يأخذ الأولاد وأن يستكتبها اعترافا بخطها بالتنازل عن المؤخر والنفقة وبأنها ليست حاملا ، وكتبت له ما أراد وألقته فى وجهه .. !

وانتهت المشكلة ، ولكنها ماكادت تنتهى حتى انفجرت قنبلة غيَّرت نظرتنا للأمر كله .. فقد تقدم لأختى بعد طلاقها مباشرة مقاول صديق لزوجها ومن نفس البلد .. شاب جميل من سنها .. كان يتردد على البيت بحكم صداقته بزوجها ..

وكانت فضيحة .. لم يسع والدى أمامها الا أن يوافق على الزواج ليغطى على الخبر ماجور .. !

وثار خطيبى وبدأ يلمح بكلام جارح .. وثرت فى وجهه وطالبته

بفسخ الخطبة ولكنه رفض .. لا لأنه يحبنى .. ولكن لأن نتيجة الترقيات لم تكن قد ظهرت بعد .. !

وألححت على فسخ الخطوبة ففسخها ، وشعرت براحة عميقة ليست بعدها راحة ..

وأذكر فى تلك الليلة .. وأختى نائمة بجوارى .. أنها سألتنى فى حزن وهى تدخل فى حضنى عن رأيى فى زواجها وطلاقها وكلام الناس .. فأجبت وأنا أكذب : أنت معذورة .. لقد تعذبت بما فيه الكفاية مع رجل لاتحبينه .. ولولا أن الله يعلم بأنك مظلومة .. لما أرسل لك هذا الرجل لانقاذك .. والزواج منك ! ..

فتنهدت أختى وقالت :

ـــ آه .. كم تعذبت .. ما أرحم الله .. لقد عوضنى خيرا بعد كل هذه السنين التى صبرتها .. فانى أعبد زوجى وأشعر من فرط سعادتى أنى أحلم .. وأنى سأفيق على الحقيقة المرة .. أشعر أن طلبى لن يحتمل هذه السعادة ..

أبعد هذا الكلام كنت أستطيع أن أبوح لها بما أنا فيه .. ولكنى كنت فى الحقيقة أتألم .. وكنت خجلى .. وكأنى أنا التى أحمل فضيحتها ..

وكنت أريد أن أبكى .. وأتكلم .. وأشكو أحزانى .. ولكن لمن أشكو أحزانى .. لأمى ؟! .. وهى عدوتى .. وعارها هى الأخرى على رأسى .. لأبى المسكين ولديه من عذابه مايكفيه ويكفى العالم .. ؟!

لم يكن هناك مفر ..

كان لابد أن أتعذب وحدى .. وأحمل آثام هذه العائلة وحدى .. وكانت النتيجة أنى مرضت .. وضعفت .. ونقص وزنى فى شهور الى أربعين كيلوجراما .. وأصبحت عيناى من فرط هزال وجهى واسعتين جدا .. ومخيفتين ..

وكان والدى متغيبا فى تلك الفترة فى مهمة طبية بالمنيا .. وأمى سارحة على كيفها تنط كل يوم الى العزبة ثم تعود سكرانة تغنى فى غرفات البيت بصوت أجش مبتذل ..

وأنا نائمة فى فراشى .. حرارتى مرتفعة .. ورأسى تكاد تنفجر من الحمى .. وقلبى يطحنه احساس ذليل يائس ..

وبلغنى خطاب من أبى فى ذلك الوقت يصف لى مدى ذعره من حلم رآه .. وهو أنى مريضة طريحة الفراش وحولى أربعة أطباء يفحصـــوننى .. ثم يرفعون رءوسهم الى أبى ويقــولون فى نفس واحد : مفيش فايدة .. فيصرخ أبى مذعورا .. ويصحو من النوم ليجد نفسه جالسا فى فراشه والدموع فى عينيه .. !

ولم يصدق أنه كان يحلم .. فقام لفوره ليكتب الى يسألنى عن صحتى ويستحلفنى أن أرد فورا وبخط يدى ..

وفعلا كتبت له فى الحال .. وكنت متأثرة جدا ، فظللت أبكى طول النهار وطول الليل ولم يغمض لى جفن وأنا بين احســاس عنيف بالحزن واحساس عنيف بالسعادة .. بالسعادة لأن أبى يحس بى ويشعر بى الى هذه الدرجة ..

وفى الصباح فتحت عينى على صوت أبى وقد جاء فى أول قطار .. وسمعت لهثاته وهو يصعد الدرج وينادى بصوت عال وبلهفة : نانى .. نانى ..

وجريت وفتحت الباب .. فتلقفنى فى حضنه وظل يقبلنى ويبكى .. وأنا أبكى .. وأضع رأسى الصغير على صدره .. فيهدهدنى كفرخ الحمام .

يا أبى .. ياحبيبى .. يا ملاكى .. يا الهى الرحيم ..

عرفت فى تلك اللحظة لماذا لايطلق أبى أمى على مايعلمه من اثمها .. لماذا تشل يده كلما رفعها ليهدم بيته .. لماذا يضعف ويفقد المقدرة ويصبح كالطفل السليب الارادة .. لأنه يحب أولاده وبيته .. لأنه يحبنى ..

وغفرت له ضعفه .. بل لقد أحببت ضعفه .. وعشقت ضعفه ..

ألست أنا ضعيفة ؟!! أنا ..

وبدأت الأقدار تنسج لنا أحزانا جديدة ..

أنجبت أختى من زوجها الجديد بنتا .. وبعد سنة حملت مرة أخرى ثم أجهضت .. وبعد الاجهاض بشهور ظهرت عليها علامات سرطان بالثدى رغم أنها كانت فى أوج شبابها ولم تتعد الثلاثين ..

وأجريت لها عملية استئصال للثدى .. وقال الأطباء أن العملية لن تنفع .. وأنها جاءت متأخرة ، وأن السرطان سيعاودها فى خلال سنة ..

ومضت شهور من الانتظار المفزع .. إنتظار الموت ..

وأنا كل يوم أنظر الى وجهها وهى تضحك فيخيل لى انها جثة تضحك .. وأدخل فى غرفتى وأبكى بحرقة .. فلم يكن فى امكاننا أن نقول لها الحقيقة .. !

لكم تمنيت أن يصيبنى الله بدائها ويأخذنى لأستريح ، فلم يكن لدى شيء أتعلق به .. أما هى فكان لها حب تعيش من أجله .. ورجل تعبده .. وابنة جميلة تعشقها ..

كانت الدنيا بين يديها .. وكنت وحدى .. ولكن الموت لايختار ضحاياه ..

واقتربت نهايتها .. وكانت آلام العظام تفرى جسدها .. وكانت تصرخ وتتشبث بيـدى هاتفة فى ذعر : « لا أريد أن أموت .. لا أريد أن أموت .. انى أفضل أن تطحننى الآلام ولا أموت .. لا أريد أن أترك زوجى .. حبيبى .. سعادتى .. لا أطيق أن تأخذه امرأة أخرى منى »

وتمسك بزوجها وتصرخ : « احلف لى أنك لن تتزوج بعدى .. احلف أنك ستعيش تذكرنى .. لا أطيق أن تلمس امرأة أخرى يديك الحنونتان .. لا أطيق أن تلمس شفتيك شفتان غير شفتى .. ان هذا يقتلنى ألف مرة أكثر من الموت .. ! »

وزوجها يبكى ويقبل يديها وقدميها ويؤكد لها أنه لن يتزوج .. أبدا .. أبدا .. مدى الحياة .. ثم يخرج الى الصالة وينهار باكيا .. ويقول :

ــ لم أعد أطيق عذابها .. ان آلامها تقتلنى .. أتمنى أن تموت

لتستريح .. ولكن كيف تموت ؟ .. ان موتها يعنى حياتى أنا أيضا .. يارب . وكانت فى أيامها الأخيرة تهذى باستمرار .. وكانت فى حاجة الى سهر وتمريض مستمر ..

وطلب زوجها منى ومن أمى أن نبقى معها فى البيت .. لنتبادل السهر عليها .. ولكن أمى اعتذرت بكل بلادة بحجة أنها لاتستطيع أن تترك البيت والأولاد .. ولأنها ليست فى السن التى تسمح لها بالسهر الى جوار مريضة .. !

ومن هى هذه المريضة .. انها ابنتها !! ..

وكان معنى هذا أن أسهر الى جوارها وحدى ..

وأن أسمع كلماتها .. كلمة .. كلمة .. وآهاتها آهة .. آهة .. وأن أتلقى لهثاتها وشهقاتها على صدرى .. وأن أموت الى جوارها بالحياة ..

وتلطف الله بها فقبض روحها الى جواره .. وأصبت أنا بانهيار عصبى .. فأخذنى خالى الى الاسكندرية ..

وسافرت وأنا كالذاهلة ..

وبذل خالى وزوجته والعائلة كل مايستطيعون من جهد ليخرجونى من حزنى وصمتى وانطوائى .. دون جدوى .. ولم يكن أحد منهم يعلم مدى ما أعانيه .. كنت كلما أغمضت عينى رأيت أختى ميتة وزوجها يحتفظ بجثتها فى المنزل ويأبى أن يدفنها لأنها لاتستطيع فراقه ، وتتشبث به وهى ميتة !

***

ومرت سنة وذهبنا لرأس البر لنصطاف ..

وجاء زوج أختى فى زيارة لمدة ثلاثة أيام ..

ولاحظت خلالها أنه بدأ يغيّر نظرته لى ، فبعد أن كان يعاملنى كشقيقة صغرى بدأ ينظر الى كامرأة ..

ولم أفهم مايقصده ..

وحينما عدنا الى القاهرة وعلمت العائلة بزيارته .. أخذوا يباركون لى .. على ايه ؟! وسمعت صديقات أمى يباركن لها فى التليفون .. على .. ايه .. ؟

وأمى تقول لى انه شيء طبيعى .. وانه أحسن زوج لى .. أنا .. !!؟ أتزوج زوج أختى التى عاشت طول عمرها تعبده ، واستحلفته بحياتها وعذابها ألا يعطى نفسه لامرأة أخرى بعدها .. مستحيل .. مستحيل ..

انى أموت بلا زواج ولا أتزوجه .. مستحيل .. !

واجتمعت العائلة حولى .. ليقولوا كلهم فى نفس واحد :

ـ مستحيل ليه .. ؟! أنت أحق به من الغريبة .. واللى نعرفه أحسن من اللى مانعرفوش وحاتفوتى البنت لمين .. البنت الحلوة الصغيرة .. بنت أختك اللى حتتمرمط فى ايد اللى تسوى واللى ماتسواش ..

ـ وهو ماله .. أخلاقه ممتازة .. وفلوسه بالألوف .. وانسانيته .. وعقله .. وحنانه .. وادى انتى شفتى ازاى كان بيعامل أختك ..

وصرخت : مستحيل .. مستحيل .. انتم مجانين .. ؟!

ولكنهم أحاطوا بى فى حلقة .. وأخذوا يضيقون الخناق حول عنقى وسلاحهم العقل .. والمنطق .. وكلامهم معقول وأسوأ مافيه أنه معقول .. !

انه شخص ممتاز فعلا . وأنا أولى برعاية بنت أختى من الغريبة ..

ولكنى لا أشعر نحوه بشىء ..

ومن أدراكم أنه لم يكن يعامل أختى هذه المعاملة الا لأنه يحبها .. وكيف أسلب أختى راحتها وهى فى قبرها وآخذ زوجها ..؟!

ـ مستحيل .. مستحيل ..

ـ مستحيل ليه .. انها حينما تحس فى قبرها أن بنتها .. وديعتها الغالية ذهبت الى يد أمينة .. وأن أختها هى التى سوف ترعاها فانها سوف تفرح ..

ـ أنت مغفلة ..

ـ مغفلة .. ربما ..

ان أسوأ مافى كلامهم أنه معقول ..

يارب ساعدنى ..

أبى .. أبى حبيبى ..

أبى يقول لى بسذاجة : تزوجيه .. انك أولى به من الغريب .. انه انسان طيب .. وبنته سوف تكون بنتك ..

أخى يقول لى : تريثى حتى تعرفى شعورك .. انها ستكون آخر فرصة لك ..

أمى سافرت الى الاسكندرية لتعود ومعها البنت .. بنت أختى ..

آه من البنت .. !

انها حينما رأتني : ألقت بنفسها على صدرى واحتضنتني في حب وغمرتني بالقبلات في كل مكان من وجهي وعنقي .. وطلبت أن تنام معي ..

وحينما أخذتها في حضني لم يغمض لي جفن طول الليل .. كان كلامها يفتت كبدي .. ويقلب تفكيري رأسا على عقب . وجاء هو .. بعد أسبوع ، وفاتحني في موضوع زواجه بي .. وصارحته بكل مايدور في رأسي .. قلت له اني لست كشقيقتي .. بل أنا على عكسها في كل شيء .. في الطباع والأخلاق والصورة ، واني لن أستطيع ملء الفراغ الذي تركته . وشيء آخر أهم من كل هذا .. اني لا أحبك كما كانت تحبك هي .. صحيح أحترمك وأعزك لأنك شخص مثالي وأحبك كأخ .. ولكنني لا أشعر نحوك بشعور الزوجة لزوجها ..

فقال لي :

ــ اني أكتفي الآن بهذا الحب .. وسوف أترك للزمن أن يجعلك تحبينني كما تحب الزوجة زوجها . أما عن طباعك وأخلاقك .. فأعتقد أني أفهمك أكثر من أي شخص آخر .. وسأعرف كيف أعاملك .. وأعوضك كل مافاتك .. أما عن الصورة فصحيح أنت تختلفين عنها كثيرا .. وليس معنى هذا أنك وحشة .. ولكن لك جمالك الخاص بك .. أما عن الفراغ الذي تركته أختك فأنا لم أتقدم الا بعد ثقتي بنفسي وفي شعوري ..

قلت له :

ـ أنا متأكدة أنك لم تطلب الزواج منى الا من أجل بنتك .. والخالة مهما كانت فهى أرحم من امرأة غريبة ..

فقال فى نبرة تأكيد :

ـ أنت مخطئة فى تقديرك .. فأنا أولا وقبل كل شىء أطلبك لأنى معجب بك .. وأنت تعلمين أنى أعيش مع أختى الأرملة .. وأنها تخدمنى وتخدم بنتى .. ولا يدفعنى الى الزواج بك حاجتى أو حاجة بنتى الى الرعاية وانما يدفعنى حبى لك ..

وهنا دخلت علينا البنت وقالت فى نبراتها الحلوة :

ـ مالكم قاعدين تتوشوشو زى المتجوزين كده .. بتقولوا ايه .. بابا ؟ .. بتحب طنط زى مابحبها .. أنا بحبها قوى ما اعرفش ليه ..

ـ وأنا كمان بحبها ياحبيبتى ..

ـ خلاص مادام بابا بيحبك وأنا معنديش ماما .. ليه متكونيش ماما .. انتى معندكيش ولاد .. وأنا معنديش ماما .. يبقى أنا بنتك وانتى مامتى .. !

فأغرورقت عيناى بالدموع .. وتلقفتها فى حضنى .. وقال هو فى صوت حزين :

ـ ألا يكفيك اسعاد ثلاثة أشخاص أحياء وأعزهم المتوفاة لكى تشعرى بسعادة كبيرة ..

فأعلنته موافقتى دون وعى منى .. فقط أشــترطت عليه تغيير السكن ، اذ لايمكننى العيش فى نفس الشقة التى عاشت أختى وماتت فيها .. وهكذا تزوجت الأستاذ عزيز .. زوجى .. وبدأت مأساتى الكبرى ..



- ٦ -

قلت لعزيز انى لا أستطيع الدخول فى شقة أختى المرحومة وعلى عفشها .. فوعدنى انه سوف ينتقل الى شقة أخرى .. وسوف يشترى لى عفشا جديدا .. ويعطى العفش القديم لأمى .. وطلب منى الاسراع فى اعداد ملابسى الجديدة .. وبدأنا نتشاور فى الأثاث الذى سنجدده ..

وبعد عقد القران خرجنا نتمشى بالليل .. وعند عودتنا فوجئت به يشدنى الى غرفة النوم ويغلقها بالمفتاح .. ويطلب منى حقه الشرعى ..

وفوجئت بهذا التصرف من جانبه .. وخصوصا بعد أن شرحت له حالتى وحاجتى لتغيير الشقة والجو القديم لتستريح أعصابى ..

ولم أكن قد تهيأت بعد لهذه الرغبة ..

كنت مازلت أنظر اليه كأخ أحترمه وأعزه ..

وكانت مفاجأة ارتبكت لها تماما ..

وتم اتصالنا فى نفس غرفة النوم التى كانت تنام فيها الميتة .. وعلى فراشها ..

ولم أشعر بلذة ..

لاشىء سوى احساس بالاشمئزاز منه وهو يخلع ثيابه .. واشمئزاز من نفسى .. وأنا أنام وأمتثل لكل مايطلبه .. وفضول ودهشة .. واحساس بالبلل .. وبالقرف .. ثم احساس مرير بالذنب

فى حق أختى وأنا أسلبها أعز ممتلكاتها .. وأطلب المتعة فى فراشها الذى ماتت فيه ..

ونام هو ..

وظللت أنا صاحية أتقلب على فراش الشوك ، وأحملق فى الظلام وشبح الميتة أمامى .. وصوتها يجلجل فى أذنى .. وهى متشبثة بذراع زوجها تصرخ :

ـ احلف لى أنك لن تتزوج بعدى ياعزيز .. احلف أنك ستعيش تذكرنى .. لن أطيق أن تلمس امرأة أخرى يديك الحنونتين .. ولا أن تلمس شفتيك شفتان غير شفتى .. ان هذا يقتلنى ألف مرة أكثر من الموت ..

وأنا أصرخ وأبكى الى جوارها وأولول .. ياحبيبتى يا أختى .. سوف تعيشين لزوجك ولبنتك .. لن تموتى أبدا سوف أموت أنا .. !

وانتبه لأجدنى فى الفراش .. أنا بلحمى ودمى والى جوارى زوجى عزيز نفسه .. وجسدى مازال يبلله العار من آثاره .

ويصحو زوجى ليذهب الى الشغل ، ثم يعود قائلا انه تعب من البحث عن شقة أخرى بايجار قديم وبخلو رجل .. ويقترح علىّ تغيير نظام الشقة وفتح الحائط بين حجرة النوم وحجرة الأولاد لتغيير المنظر وتحويل الغرفتين الى غرفة جميلة واسعة .. الى أن يبنى فيللا ..

ـ وهل ستبنى فيللا ؟ ..

فيقول : نعم .. لقد اشتريت الأرض فعلا .. وبدأت أنفق على رسمها وبنائها .. ولكن بالطبع لن أستطيع دفع أقساطها اذا انتقلت الى شقة بايجار جديد لأنى لن أستطيع الدفع فى الشقة الجديدة والفيلا فى وقت واحد ..

ـ وهل ستنتهى من بناء الفيللا قريبا .. ؟

ـ فى ظرف أشهر قليلة ياحبيبتى .. ان الحكاية لن تحتاج أكثر من أشهر قليلة نصبر فيها على عيشتنا هنا حتى ينتهى البناء ..

وهكذا صبرنا ..

وبقينا فى تلك الغرفة الملعونة .. لم يتجدد شىء سوى عذابى الذى بدأ يزداد يوما بعد يوم ليصبح عذابا رهيبا ..

يصبح الصبح فأقوم لأساعد البنت على الذهاب الى المدرسة .. وأعد لزوجى فطوره ..

ويذهب الى عمله وأبدأ أنا فى الاشراف على البيت .. ويتملكنى الشعور بأنى لست فى بيتى .. وانما أنا زائرة غريبة .. لصة .. كل حجرة تذكرنى بأختى .. كل مقعد .. كل قطعة أثاث ..

انه لم يتزوجنى أنا .. انه تزوجنى من رائحة أختى التى يحبها .. تزوجنى ليتعلل بى حتى يبقى فى نفس البيت .. وفى نفس الغرفة .. ونفس الفراش الذى يحبه ..

ما أنا الا شبح .. أما الحقيقة التى تملؤه وتملأ قلبه وتملأ البيت وتملأنى أنا أيضا فهى جسم الميتة وأنفاسها .. !

أنا لصة سرقت زوجها منها .. بل هى اللصة التى سرقت نفسى

مني .. سرقت حقيقتي .. ووضعت فى مكانها صورتها ورائحتها ..

وفى كل يوم أبتعد عنه أكثر .. وأبتعد عن نفسى أكثر وأكثر .. ويتسع الجرح فى داخلى .. وينفصل سلوكى الظاهرى الذى أتكلفه بحكم الواجب .. عن شعورى الداخلى الذى يضطرم داخلى بالنفور .. !

وهو لايشعر بالعذاب الذى أعانيه .. وانما يثور لبرودي .. ثم يكف عن الاهتمام بى وبرغباتى .. ويأخذ فى معاملتى كشىء اشتراه بالمال .. يأخذ منه حقه الشرعي متى يشاء بالطريقة التى تعجبه .. لايعبأ باشمئزازى !

ويتحول فى نظرى الى حيوان .. !

وأبحث فيه عن الرجل الممتاز .. والانسان اللطيف الذى تعودت أن أحترمه فلا أجده .. !

ان المعاملة السرية والعطف الرقيق المتبادل فى لحظة الفراش .. وحرص كل واحد على شعور الآخر .. وتجاوب النفوس والأرواح .. هو وحده الذى يخلق الاحترام الحقيقى والحب بين زوجين .. أما المظهر اللطيف فى الشارع وفى الترام وعلى البلاج فانه لايكفى ليجعل من الرجل زوجا ..

ان الرجال يتغيرون كثيرا حينما يخلعون ملابسهم الرسمية .. !

ونحن نكذب على أنفسنا حينما نقول اننا سوف نحب أزواجنا بمرور الوقت .. !

لقد فهمت هذا بعد فوات الأوان ..

لم يكن زوجي ذلك الرجل النبيل الجنتلمان الذى تعودت أن أحترمه .. وحينما خلع ملابسه .. كان مجرد حيوان !

ولم يحدث شيء بمرور الوقت .. لا حب .. ولا حتى تعود .. وانما ازدادت كراهيتي .. وازداد نفورى !

وكنت أشعر بالضـيق كلما اقترب منى ليأخذ مايسـميه حقه الشرعى ، وكنت أحيانا أضغط على نفسى لأرضيه .. وأحيانا أعلنه بأنى غير راغبة وكان حينئذ يثور .. ويقول انه بشر وبدنه له عليه حاجات .. فمن أين يقضى هذه الحاجات .. فأثور أيضا وأصرخ بأنى بشر .. وبدنى له على حق أنا الأخرى .. ولا أستطيع أن أرغمه على طعام لايحبه !

وكان يحدث دائما اذا ضغطت على نفسى وامتثلت لمطلبه .. ان أثور بعد هذا لأتفه الأسباب .. وأبكى .. وأصرخ !

واذا حدث العكس وضغط هو على نفسه .. وامتنع من أجلى .. فانه كان يثور وينفجر بعدها لأتفه سبب !

وكنت حينئذ وحينما تبلغ ثورته أشدها .. أشعر براحة شريرة فى داخلى .. لعلهـا أختى الميتـة هى التى كانت تبتهج فى داخلى بعذابه .. ولكنى كنت أشعر شعورا آخر واعيا بالعطف عليه .. والحزن من أجله ..

وهكذا كنت أتراوح بين احساسات متناقضة ..

وبدأ يلجأ الى أدوية طبية ليطيل فى فترة اتصاله بى .. وكنت فى تلك الحالات أشعر بلذة .. ولكن اللذة كان يعقبها قيء وصداع

وآلام نفسية حادة .. وشعور بالنفور والاشمئزاز من جسمى لأنه يتلذذ وحده كالحيوان دون أن تتلذذ روحى وتنعم نفسى .. ودون أن أشعر برضى القلب ..

وكنت أحتقر جسمى وأعاقبه وأثأر منه .. وأنظر اليه باشمئزاز ، كأنه جسد عاهرة باعته فى سبيل قوتها ومصروف يدها ..

كانت اللذة تنتهى دائما بنكد لى ولزوجى ..

وأدرك زوجى أنه لا فائدة .. فأسلم نفسه ليأس مرير ..

وبدأ يعاملنى كأنى وسيلة يؤدى بها وظائفه بدون شعور .. بدون تمهيد .. بدون مقدمات ..

وتحولت ساعات الليل الى ساعات عذاب أليم ..

وفى بعض الأحيان كنت أشعر بانقباض فى صدرى بمجرد سماع أذان العصر .. ودخول الليـل .. من خوفى .. ومن احتمال طلبه شيئا .. وفى أحيان أخرى كنت أنهار وأبكى .. وألطم خدى .. وأشد شعرى .

وكثرت رؤيتى لأختى فى الأحلام ..

وكنت أراها فى مرة تغسل ثياب زوجى .. ومرة تخيط له جواربه أو تطعم ابنتها وتعد لها الشاى واللبن .. وتلبسها مريلة المدرسة ..!

كانت تروح وتجىء حولى .. وفى عقلى .. وفى خيالى .. وتعيش حياتها البيتية العادية .. التى هى حياتى .. وأنا أنظر اليها .. والى نفسى كأنى غريبة تماما ..

وبدأت أغرق آلامى فى القراءة .. كنت أقرأ لزفايج ، وأطالع

مارسيل بروست .. وبعض كتب بلزاك قرأتهـا مرتين وثلاثة .. وأحيانا كنت أقرأ الجرائد القديمة .. وأحيانا كنت أكتب ..

وأحيانا كنت أتلهى بالعزف على البيانو .. وكنت أحب المقطوعات الحزينة اليائسة مثلى ..

ولكنى كنت أحس فى لحظات أن كل هذا كلام فارغ .. وكنت أمزق الأوراق التى كتبتها .. وأمزق الكتب .. وأمزق شعرى .. وأبكى فى حرقة وصمت .. !

كل هذا كلام فارغ .. !

ان أنوثة المرأة هى كل وجودها .. وحينما تفقد المرأة جسمها وروحها فلاشىء يعوضها .. لاشىء .. لاشىء أبدا .. !

وفى تلك الأحيان كنت آخذ الأقراص المنومة .. لأنام .. وأقتل سوس القلق واليأس الذى يأكلنى ..

كنت أنشد الخلاص من نفسى بأى ثمن .. !

وأخيرا وصلت غرفة النوم الجديدة .. وجاءت معهـا أمى .. وغيّرت نظام البيت .. وبعد يومين تشاجرنا ، وسافرت غضبانة لأنها تريد أخذ بعض مفارش أختى بحجة أنها أصبحت زائدة عن حاجتى .. ورفضت بشدة .. وقد أحسست مدى الفارق بيننا .. هى كل تفكيرها محصور فى أخذ مفرشين أو ثلاثة .. وأنا أعيش أبكى وأصرخ وأحرم على نفسى حياة وسعادة هى ملكى وحقى لمجرد أن أختى اشتهتها يوما ما .. !

وأدركتنى رحمة الله وظهرت علىّ بوادر الحمل .. واسترحت

من اتصالى بزوجى بضعة أشهر أنجبت بعـدها طفـلا جميلا .. شعرت بالفرحة لأول مرة .. حينما نظرت فى وجهه ..

وسافرنا الى بورسعيد .. وفتح زوجى مكتبا للمقاولات ..

وكانت حياتنا تبدو من الظاهر رتيبة هادئة ، وكأنما التـأمت جراحها .. ولكنه التئام من السطح فقط .. لأنها كانت تزداد عمقا يوما بعد يوم .. !

ومرت شهور .. وانتقلنا الى شقة جديدة .. ولاحظت أن حال زوجى ساءت .. وأن أعصابه أصبحت لاتحتمل أى شىء .. وأنه أصبح يثور فى وجهى بلا سبب ويظل يصرخ ويشتم ثم يحملق فى وجهى .. وتلمع عيناه ببريق مخيف فيه مزيج من الكراهية واليأس والجنون .. وكان يخيل لى ساعتها أنه سيقع فاقد النطق ..

وكان السبب هو سوء حالته المالية .. وتوقف أعمال المكتب بسبب الحالة الاقتصادية ..

وكنت أحاول بشتى السبل أن أطيِّب خاطره بدون نتيجة .. اذا هوّنت عليه المشكلة اتهمنى بأنى لا أقدر الموقف .. وأنى أنانية لايهمنى الا نفسى .. واذا حاولت التفكير معه .. نهرنى وقال : انى طفلة فى تفكيرى .. وانى لا أفهم شيئا ..

وجاءت الست الوالدة .. لا لتزورنى ولكن لتقبض حوالى الخمسمائة جنيه تعويضا عن ثلاثة كباين غمرتها المياه بسبب اهمال البلدية .. والحقيقة أن هذه الكباين كانت قد اشترتها من نقود والدى دون أن يعلم ..

وقلت لها انى معذورة .. وفى حاجة لقرشين .. وأن حالة البيت تعبانة .. وان زوجي عصبى باستمرار بسبب توقف الاعمـــال فى مكتبه ..

فوضعت يدها فى محفظتها .. وأعطتنى ثلاثة جنيهات .. ولمأعرف ماذا أقول .. وبماذا أشتمها .. وألقيت فى وجهها النقود ..

وقعدت أصرخ وأبكى .. وزوجى يصرخ فى وجهى .. دى مش عيشة .. ايه القرف ده .. أنا ذنبى ايه أستحمل النكد المستمر ده .. انتي اتخانقتي مع أمك .. تقوم هى تسافر مبسوطة .. وأنا اللى أشرب المر هنا ..

وأبكى فيزداد صراخه ..

وبدأت أفكر جديا فى وضع حد لهذا العذاب ..

كان الطلاق غير مجد .. فقد فات الأوان وتحولت الى عجوز صفراء كالحة فى سن الثلاثين .. امرأة ذاهلة تائهة لاتصلح لشىء ..!

ولم تكن لى حياة أخرى أحياها .. أو بيت آخر ألجأ اليه .. أمى تكرهني وأنا أكرهها .. وسوف تطردنى من بيتها اذا لجأت اليها .

واذا طلقنى زوجى فلن يكون أمامى حل سوى الانتحار ..

كانت حياتى كلها يأس فى يأس .. المخرج الوحيـــد فيها هو الخضوع والقبول والاستسلام ..

وبدأت أقتل فى نفسى كل احساس .. وأعيش جسدا بلا روح .. أتحرك فى فراغ مفزع .. وملل قاتل .. وأنام فألبث فى فراشى بلا

حركة لا أنا بالنائمة أو بالصاحية .. وانما راقدة فى خمول شنيع .. أقوم من رقادى لأرقد من جديد ..

وبدأ يشتمنى فلا أرد .. ويسبنى بألفاظ بذيئة فلا أجاوبه .. ويثور فى وجهى ولا أتكلم ..

واذا به يصرخ فجأة :

ـ انتى ساكتة كده ليه .. عاوزه تفرسينى .. حد مصلطك عليه .. عاوزانى أتجنن .. عاوزانى أطلقك وأخلص .. طيب انت طالق ..

ووقف يطلب والدى فى التليفون ويبلغه أنى طالق ..

ونام ليلتها فى حجرة أخرى .. وبت أنا أفكر فى مصيرى ..

لاشىء أصبح يجدى .. خضوعى أصبح يثيرة .. وهياجى يثيره .. وها أنا مطلقة .. بلا أمل .. بلا بيت .. بلا صدر حنون ألجأ اليه ..

وأندفعت الى موسى حلاقة وجدته أمامى .. وقطعت شريان ذراعى وأغمى علىّ .. وكان آخر ماسمعته صوت الخادمة وهى تصرخ : دم .. دم .. دم ..

وحينما أفقت كان زوجى راكعا الى جوارى يقبّل يدى .. وقدمى . ويبكى ويتوسل .. ويقول انه سيفعل المستحيل لاسعادى .. وانه لن يتركنى أبدا مهما حدث ..

***

وأنقذونى من الموت لأموت بطريقة أخرى .. ببطء .. فى البيت

الواسع .. والحجرات التى لا أعرفها .. والرجل الغــريب الذى يضمني كل ليلة على أنه زوجى ..

والملل .. والفراغ .. والحياة التى بلا معنى ..

وكل يوم مثل الآخر ..

وأنا أقرأ .. وأكتب .. ثم أشــعر أنه لا فائدة من أى شيء .. فآخذ الحبوب المنومة لأنام ..

ولا أحد يشعر بى ..

آه يارب ..

ماذا فعلت لأتعذب .. ؟!

وما هو الأمل الذى أتحمل من أجله كل هذا العذاب .. !؟

ان الناس يضحون بأنفسهم من أجل شيء .. وأنا .. من أجل أى شيء أضحى ؟!

انى أخسر كل شيء .. حتى نفسى .. وليس لى الا نفس واحدة أعيشها ..

وانتهت المذكرات ..

***

وعدت أمسك حزمة الأوراق .. كأنها حزمة من الأعصاب لا من الأوراق ..

هذه هى نانى .. وهذه هى القصة التى كنت أبحث عنها خلف عينيها ..

وضعتها بجانبى فى رقة كأنى أوسد جريحا .. وعادت كل كلمة

فيها ترن فى أذنى .. كل شخص يطاردنى .. ويتمثل لخيالى .. وكأنى أعرفه من زمن بعيد .. وكأنى عشت معه ..

كلهم تجمعوا حولى .. الأب الحنون الذى يتعذب فى صمت .. والأم القاسية .. والأخت التى ماتت وبعثت .. بعثت فى دمى أنا أيضا .. والزوج ونانى ..

لم يعودوا يتحركون وحـــدهم .. أصـبحت أتحـرك معهم .. وأشاركهم مصيرهم ..

وخلف الظروف التى تباعد بيننا وجدت الخيط الذى يربطنا نحن الاثنين أنا وهى ..

كل منا ضاعت حياته .. وهو يبحث عنها ..

ضاعت نفسه .. وهو لايجدها ..

كل كلمة قرأتها وثقت هذا الحبل الخفى .. وعقدت بيننا ذلك القران الحرام الذى لا مفر منه .. !

انها لاتعرفنى .. ولكنها مع هذا قد سلمتنى مفاتيح عالمها الخاص لأدخل فيه ..

ولعلها عرفتنى بما فيه الكفاية حينما نظرت فى عينى فوجدت نفس العالم الذى تسكنه .. وشعرت بأواصر الضياع التى تربطنا دون أن تتكلم ..

نانى .. أشعر بها قريبة منى .. أشعر بها حولى .. فى داخلى .. الى جوارى .. أحبها .. أحبها .. بنفس اليـأس الذى تكره به زوجها ..

نانى ..

ولم أستطع أن أصبر ..

ولم أعرف ماذا أفعل بالضبط .. وانما وجدت نفسى أدير قرص التليفون على رقمها :

ـ نانى .. أريد أن أراك فى الحال ..

وكان صوتى يرتجف من العاطفة ..

ولبثت صامتة برهة على الطرف الآخر من التليفون ..

وسمعت صوت لهثاتها .. وصوت أفكارها .. وصوت قلقها .. ثم أجابت فى استسلام .. وبلا وعى .. فى يأس .. كأنها امرأة تمشى فى نومها :

ـ طيب ..

***

كانت تجلس الى جوارى فى العربة .. وأنا أسير ببطء فى طريق خال على أطراف القاهرة .. وكانت تقول لى :

ـ هل قرأت الأوراق كلها ؟ ..

ـ وعشت فيها .. كلمة .. كلمة ..

ـ وهل تجد أن لى حلا .. ؟

ـ أنا لا أجد لك ولا لنفسى حلا .. !

والتفتت الىّ فى دهشة :

ـ ومادخلك أنت ؟

ـ وما الذى جعلك تلقين بين يدى هذه الأوراق على خطورة مافيها ؟

ـ لا أدرى .. ولكنى كنت أشعر دائما أنك لست غريبا عنى .. كنت أشعر انك وحيد تماما مثلى ..

وسكتت لحظة ثم أردفت :

ـ أليس هذا غريبا .. أن يشعر رجل بالوحدة .. ان الدنيا كلها دنيا الرجل .. انكم تستطيعون أن تفعلوا كل شىء ..

ـ وما جدوى أن نفعل أى شىء .. اننا نريد ماتهواه أنفسنا ..

ـ وما الذى تهواه نفسك .. ؟

ـ أريد أن أعيش .. أريد أن أحب وأتزوج وأنجب ولدا ..

ـ ألم تشعر الى الآن أنك قد تزوجت وأنجبت ولدا ؟ ..

ـ انى أشغل وظيفة زوج وأب ، ولكنى لست متزوجا ، ولا أبا .. !

ـ ولكنكم تستطيعون تغيير وظائفكم أحيانا يارجال .. تستطيعون الطلاق والزواج مرة .. وأخرى !

ـ ليست لدى القوة ولا القسوة الكافية لأفعل هذا .. أنا أضعف من أن أغير حياتى .. وأقوى من أن أقبلها ..

ـ انك تتكلم مثلى .. أنت الرجل .. من يصدق هذا ؟!

وسكتت لحظة ثم قالت :

ـ ومع هذا فلا أحد قد أكرهك على هذه الحياة .. لم يزوجك أحد عنوة .. !

ـ لم أتزوج عنوة .. ولكنى تزوجت خلسة دون أن أدرى ..

ـ وماذنب زوجتك ؟ .. وماذنب الولد الصغير .. ؟

ـ ليس لأحد ما ذنب .. انى لا أشكو أحدا ..

ـ ها أنا ألومك .. وأنا غارقة فى الذنب حتى أذنى .. ماذا أقول ؟ ماذا أفعل ؟ .. ما الحل ؟ ..

ـ الحل هو أن نحلم .. أنا شخصيا أبحث عن حلم أنشغل به وأتوه فيـه .. ولكنى متيقظ .. متيقظ دائما .. وهـذه اليقظة تعذبنى ..

ـ ولكنك رجل .. أليس كذلك ؟ .. والرجل يستطيع أن يغرق همومه فى عمله ..

ـ ان عملى مثل زوجتى .. غريب عنى .. لا أحبه .. أنا أملأ به وقتى فقط .. ولكنى أريد أن أملأ نفسى .. ان الفراغ الكبير هنا.. داخلى .. أشعر أنى عاطل تماما .. أشعر بالملل يقتلنى ..

ـ انك تعذب نفسك بدون داع ..

ـ أريد أن أشعر بالحماس .. أريد أنأتحمس .. أريد أنأتحمس لشىء ولو كان هذا الشىء ارتكاب جريمة .. انى أحيانا أحسـد المجرم لأنه ارتكب جريمته فى غل .. أنا أريد أن أشعر بالغل نحو أى شىء ..

ـ ألم تحب ؟ .. ألم تشعر بالحب مرة فى حياتك ؟! ..

ـ أحيانا أقنع نفسى أننى أحب هذه أو تلك .. ولكنى لاأستطيع أن أستمر فى الكذب على نفسى طويلا ..

ـ لاشك أنها تكون مغامرات مسلية ..

ـ انها تكون مسلية فى البداية .. لكنها تكون قاتلة فى آخرها ..

حينما أشعر أني قد فقدت القدرة على السعادة الى الأبد ..

ـ انك تبالغ .. لاشك أنك تبالغ كثيرا .. ان الدنيا فيها لحظات سعيدة بالرغم من كل هذا .. انى احيانا أجد السعادة فى أشياء صغيرة جدا .. فى نظرة من عين ولدى ..

كانت تحاول أن تسرّى عنى .. وكان يبدو على وجهها أنها تشعر بالراحة .. وكنت أشعر بالراحة لأنى وجدت انسانا أيأس معه .. وآمل معه .. وأسخط على الحياة معه ..

أكان حبا .. ؟!

أكانت أنانية منا نحن الاثنين ؟.. كل واحد يجد نفسه فى الآخر .. يجد مصداق حياته ماثلا أمام عينيه .. لا أدرى ..

كل ما أعرفه أنى كنت أريد أن أتكلم .. وأتكلم ..

لم أكن أريد أن أكف عن الكلام ..

وكنت أشعر أن الوقت ضيق .. وأن ما أريد أن أقوله كثير .. كثير جد ..

ولم أفق من الحلم التى كنت فيها الا حينما نبهتني الى أن الوقت متأخر وأننا يجب أن نعود الى البيت ..

ولكني ما كدت أعود وأستقر وحدى فى غرفتى حتى شعرت بحاجة شديدة الى أن أكلمها .. وما لبثت أن رفعت السماعة فى تردد ..

كانت وحدها .. وقالت لى أنها كانت على وشك أن تطلبنى ..

شعرت بسعادة لا توصف .. وقلت لها فى أسف :

ـ أنا أشعر بخجل شديد .. لأنى قضيت كل الوقت معك .. وأنا أتحدث عن نفسى .. كانت أنانية منى لم أكتشفها الا حينما عدت الى البيت .. اغتفرى لى سوء أخلاقى ..

ـ انك دائما تحاول أن تحمّل نفسك ذنبا .. لماذا تضطهد نفسك ؟! ..

ـ أنا لا أضطهد نفسى .. ولكنى لا أريد أن أكون همًّا يضاف الى همومك .. لا أحب أن أكون طفلا كثير الصراخ يضاف الى أطفالك .. فلديك ما يكفيك !

ـ أنت لست طفلا .. أنت عجوز جدا .. يخيل الى أنك ولدت عجوزا كهلا .. اننى أشك فى أنك عرفت الطفولة يوما ما .. ان الطريقة التى تمشى بها .. والطريقة التى تنظر بها .. هى طريقة رجل كهل جرب كل شيء .. وانتهى من كل شيء .. !

ـ هذا صحيح .. أنا أشعر أحيانا أنى عجوز جدا ..

ـ أترك نفسك على سجيتها .. لا تضطهد نفسك بكل هذا التفكير .. دعنى أكون طبيبتك النفسية ..

ـ حاضر يا دكتورة .. وماذا عندك من تعليمات أخرى .. ؟

ـ حذار من المغامرات المسلية .. فان قلبك العجوز لم يعد يحتملها ..

ـ حاضر ..

ـ وابحث لنفسك عن عمل تحبه .. عمل مضنى مرهق لتشغل نفسك به طول النهار وتعود متعبا لتنام ..

ــ لقد وجدت هذا العمل من الآن ..

ــ ما هو .. ؟!

ــ أنت .. أنت ستكونين عملى المضنى الذى أحبه .. وأشغل نفسى به طول الحياة .. !

وسكتت لحظـة .. ولم تجب .. وسمعت صوت لهثاتها .. ثم قالت باضطراب :

ــ لقد اخترت عملا يائسا .. خاسرا .. لقد اخترت سما تتعاطاه ولم تختر دواء .. أنت تريد الموت لا الحياة ..

ــ لقد فقدت القدرة على أن أعيش كما أشتهى .. دعينى أمت كما أشتهى .. !

ــ أنا أحمل من الذنوب ما يكفينى .. لا أريد أن أحمل ذنبك أنت أيضا .. لقد حطمت حياتى .. ولا أريد أن أحطم حياتك معى .. أنت أغلى من أن أختار لك هذا المصير .. أنا أريد لك السعادة ..

ــ أنت سعادتى .. أنا أحبك .. أحبك يا نانى ..

وسكتت .. هذه المرة سكتت طويلا .. وسمعتها تبكى بحرقة ..



- ٧ -

كنت أقف أمام الحوض .. رأسى تحت الحنفية .. والماء ينزلق على شعرى .. وعيناى ما زالتا مثقلتين بالنوم ..

ومن خلفى كانت أمينة تحمل الفوطة .. وكنت أسمعها تتكلم .. وصوتها مبحوح من البكاء طيلة الليلة الماضية .. ولكنه ثابت .. جاد .. فيه نبرة شديدة لم أتعودها ..

كانت تكلمنى عن أطيانى فى الصعيد .. وعن خطاب جاء من عند الخولى .. يطلب نقودا للزراعة .. وكانت تقول ان والدى كان يذهب بنفسه .. ويباشر العمل .. ويفتش على أرضه وزراعته .. وأنى أهملت كل شىء .. وأن الفلاحين يسرقوننى .. وأنى سوف أفقد أملاكى وثروتى اذا لم أفتح عينى جيـدا .. وكانت تتكلم بشدة ..

ـ لابد أن تسافر للصعيد .. وتباشر أرضك بنفسك .. ان أباك لم يجمع هذه الارض بسهولة .. لقد ضيع فيها عمره ..

وأحسست بالخجل من نبراتها ..

وأحسست بالضيق لأنها ذكرتنى بالمسئوليات ..

وأخفيت وجهى فى الفوطة ورحت أحك رأسى عدة مرات .. وأنا ما زلت أمضغ ذلك الضيق الذى استولى على ..

وذهبت الى مكتبى .. ورحت أفض الخطابات ..

كان لابد من السفر الى الصعيد .. ومباشرة الزراعة فعلا .. فلا

أحد هناك سوى الخولى .. وهو يفعل كل شىء على هواه .. يزرع ويجمع ويحصد ويبيع ويشترى .. ويكتب ما يشاء من مصاريف وايرادات .. ويأخذ ما يحلو له ويدفع ما يحلو له ..

كان من الواجب عمل شىء ..

وضايقتنى كلمة الواجب ..

وحينما بدأت أعد الحقائب للسفر أحسست أن أرضى هى التى تملكنى .. ولست أنا الذى أملكها .. !

هى التى تجثم على أكتاف .. وتركبنى .. وتسوقنى .. الى حيث لا أريد .. لأن الواجب كذا .. وكذا ..

أف من الواجب ..

الصعيد ؟! ..

مالى أنا ومال الصعيد !! ..

أنا أريد البقاء بالقاهرة .. الى جوار الدفء الجديد الذى أخذ ينبعث حولى ..

فى الشارع الذى أخضرت أشجاره فجأة وأورقت وأزهرت ..

أمام الشباك الذى تناديني منه الشمس ..

والتليفون الذى يهمس فى أذنى بكلمة الحب ..

ولكن الواجب .. الواجب .. وشعور بالخجل يملأنى ، فأتصاغر فى نظر نفسى الى مجرد طفل يبدد الثروة التى جمعها أبوه ..

وأكره نفسى وأكره ثروتى .. وأتمنى الخلاص من الأرض التى تقيدنى .. ان أبى ما زال يحكمنى .. ان الفدادين الملقاة على أطراف

سوهاج .. هى روحه .. هى رغبته .. هى كلمة الواجب التى كان يطاردنى بها وأنا صغير ..

وصفر القطار طويلا .. وألقيت بنفسى فى عربة النوم ..

وأحسست بذهنى يصفو وروحى تهدأ .. وذابت الدوشة التى كانت تأخذ بتلابيبى كما تذوب الرغوة التى تعكر وجه الفنجان .. وبدأ ذلك الشىء الغامض الذى يحيرنى يطفو .. شيئا فشيئا من أعماقى ..

ها أنذا فى النهاية ملقى فى عربة تجرى من بلد الى بلد .. من مكان غريب الى مكان غريب .. لا شىء يشعرنى بالألفة سوى احساس فى داخلى أطويه عليها .. على خيالها .. على اسمها ..

اسمها يشعرنى بالألفة بأنى مع نفسى ..

وتذكرت كلماتها وهى تقول لى :

ـ أنت تعذب نفسك بدون داع .. أنت تبالغ .. تبالغ كثيرا .. ان الدنيا فيها لحظات سعيدة بالرغم من كل هذا . انى أحيانا أجد السعادة فى أشياء صغيرة جدا .. فى نظرة من عينى ولدى .. انك عجوز جدا .. يخيل الى أنك ولدت عجوزا كهلا .. ان الطريقة التى تمشى بها والطريقة التى تنظر بها .. هى طريقة رجل كهل جرب كل شىء وانتهى من كل شىء ويئس من كل شىء .. لماذا تضطهد نفسك بكل هذا التفكير ؟!

وصوتها الحنون وهى تهمس :

ـ أنت أغلى من أن أختار لك هذا المصير .. أنا أريد لك السعادة

لقد حطمت حياتى ولا أريد ان احطم حياتك معى .. انا احمل من الذنوب ما يكفينى .. ولا أريد أن أحمل ذنبك أنت أيضا ..

بل احملى ذنبى أنا أيضا .. وحطمى حياتى ..

أنا أريد أن أشعر بالولاء لأى شىء ولو لدمارى ..

أريد أن أعثر على رغبتى الضالة .. ونفسى المفقودة .. فيك أنت .. نانى .. نانى ..

وظل اسمها فى أذنى .. طول الطـريق والعجلات تجلجل تحت الوسادة حيث أضع رأسى .. والعـربة تهتز واللمبة الكهربائية فى السقف ترتعش ويخبو نورها ثم يتألق .. ثم هدأت سرعة القطار .. وسمعت صوت الفرامل .. ثم توقف القطار تماما ..

وظننت أنها محطة .. وفتحت النافذة ولكنى لم أجد محطة .. ورأيت القطار يقف فى العراء وسط الحقـول .. والدنيا ليل .. والظلمة حالكة ولا صوت هنـاك سوى صوتنـا ونحن نطل من النوافذ ونتكلم .. يقاطعنا بين حين وآخر صوت ذئب يعوى فى الحقول ..

وقال الكمسارى ان هناك عطلا فى الخط وأن القطار سيتوقف نصف ساعة .. ودخلت عربتى ولبثت فى فراشى ونظرت فى نور اللمبة الذى خبا تماما .. وثقلت أجفانى .. ونمت ..

لم أتيقظ الا والكمسارى يدق الباب بشدة ويصيح : سوهاج .. وقمت الى حقيبتى أسويها .. ولبست ثيابى وفتحت الباب ونزلت مسرعا ..

سلامات .. والله سلامات .. كيف الحـال فى مصر ؟ .. طيبون حلت البركة ..

ده الصعيد نورت .. ألف حمد الله على السلامة ..

روح ياواد لعمك بشاى عيط عليه .. جول له ان البيه وصل من مصر .. والله سلامات .. والله مرحبا .. مشتاقين ..

الاخبـارية وصلتنا ليلة البارحة .. جينـا لتونا فى الحـلزونة (الأتوبيس) ومن الصبح واحنا واجفين عاد .. كل ما ييجى جطر نجول أهو وصل ونطـل ما نلاجيش حد .. ان شاء الله تكون مبسوط ..

كان المتحدث هو سركيس أفندى .. الكاتب .. والخولى الذى يدير زراعتنا .. وكان يهب واقفا كل دقيقة ويشد على يدى ويهزها فى عنف ويهتف : ان شاء الله تكون مبسوط ..

وأنا فى كل مرة أهب واقفا مثله .. وأشد على يده .. وأمرى لله ..

وكان يصاحبه فلاح طويل هزيل كالح البشرة .. أشيب الشعر .. يشبه الجرادة .. عيناه ضيقتان حمراوان غائرتان .. وهو لا يكف عن وضع أصابعه فيهما بين لحظة وأخرى ويفركهما بشدة ..

وركبنا عربة بالأجرة أخذتنا الى الأرض ..

واستقبلنا الخفراء باطلاق النار فى الهواء ..

وتجمع الفلاحون حولنا .. وكادت يدى تنخلع من كثرة المراحب والسلامات ..

وكان الجـو صحوا والسماء صـافية .. ولكنى كنت أشعر بانقباض ..

كانت الوجوه التى تبتسم حولى هضيمة كالحة غبراء .. وكانت بتسامتها شاحبة .. وكان فيها شيء ثقيل .. مثل التراب الذى فى لجو .. والجفاف والسخونة والهواء الراكدة ..

ودخلنا الاستراحة .. وكان الخفراء مازالوا يطلقون النـار فى الهواء ، والحمام يطير فى فزع من ابراجه ويحلق فوق رءوسنا ..

وكان سركيس أفندى ما زال يثرثر ويتكلم كلاما كثيرا .. يقطعه بين حين وآخر هاتفا : ان شاء الله تكون مبسوط ..

وجلست أدخن وفتحت الدفتر أمامى .. وجرت عينى على السطور .

١٢ نفرا لعزيق الفدان قمح بواقع ١٢ قرشا يومية للنفـر .. المجموع ١٤٤ قرشا ..

٦ أنفـار لسقية الفدان بواقع ١٢ قرشـا للنفر .. المجموع ٧٢ قرشا ..

٣ أكياس سماد للفدان بواقع الكيس ٥ جنيهات . المجموع ١٥ جنيها ..

احتياجات الماكينة عن أربع سقيات للفدان ٤ جنيهات ..

أجرة مشال المحصول للجرن بالجمال ١٢٠ قرشا ..

أموال مقررة .. ٢٥٠ قرشا رسوم بلدية .. ١١٠ قروش ضريبة جراد ..

ومررت على الأرقام بعينى عدة مرات .. دون أن أفهم شيئا .. وخرج سركيس افندى الى الحقل ليحضر فرسا اركبه .. وبقيت وحدى مع عوضين الفلاح الذى يفرك عينيه ..

سألته : لماذا يفرك عينيه هكذا فقال انه ذهب الى الدير البارحة وأخذ ترابا من كنيسة العدرة وضعه فى عينيه .. ثم ابتسم وأردف :

ــ دي الحمد لله كتير .. دى كانت وارمة البــارحة زى عين الجمل .. قدس أبونا هو اللى طيَّبها ..

ولم أجد كلاما أرد به على الرجل .. وعدت أقرأ الحسابات ..

١٠ أنفار لرمى الكيماوى بواقع ١٢ قرشا يومية للنفر .. المجموع ١٢٠ قرشا للفدان ..

نصف أردب قمح تقاوى بمبلغ ٣ جنيهات ..

وتنحنح عوضين .. وفرك عينيه وسعل .. وهمهم :

ــ طيبون .. دى الصعيد نورت ..

وسكت قليلا ثم أردف :

ــ أنا لى مصلحة عندك يا سعادة البك ربنا يخليك ..

ــ خير .. يا عوضين ..

ورفعت رأسى من الدفتر ونظرت اليه ..

والله بدى كام فــدان أأجرهم منك السنة دى عشان الزرعة الشتوية

ــ انت مش بتشتغل عندنا ؟

ــ لا والله .. أنا مأجر كام فدان جاركم فى حوض أحمد بك .. وبالى أزرع كام فدان عندكم السنة بالايجار ..

ــ تأجر لك يا عوضين .. أما ييجى سركيس أفندى .. نشوف ..

ــ ربنا يخليك ياسيدنا البك ..

وخطر لى أن أسأله عن الزراعة ..

ـ والزراعة حالها كويس السنة دى يا عوضين .. محصول القمح ازيه ؟ ..

ـ عال والحمد لله .. البركة فيك ..

ـ رميت كيماوى قد ايه فى الفدان ؟ ..

ـ كيس .. الخمس فدادين خدوا ١٥ جنيها كيماوى ..

ـ وكنت مشغل أنفار كتير .. ؟

ـ ثمانية أنفار للفدان ..

وكنت أنظر فى الدفتر واقرأ الأرقام العالية التى كتبها سركيس أفندى ..

كان من الواضح أنه يسمسر فى كل عملية على أساس أنى لا أفهم شيئا فى الزراعة .. وأغلقت الدفتر .. وأنا أفكر فى حل ..

وحضر سركيس أفندى ومعه الفرس وركبته وانطلقت ..

وتجولت فى الحيضان المجاورة اسأل الفلاحين .. وتأكد لى ان الخولى يسرق منى .. ومن عرق الفلاحين .. ومن كل حبة قمح وعود قطن ..

وعدت وقد صممت على شىء ..

ناديت الخولى وأمرته بأن يسلم عهدته الى عوضين ..

وقلت لعوضين .. انى سوف أعطيه خمسة فدادين يزرعها لنفسه فى مقابل اشرافه على الأطيان وعمله كخولى عندى ..

وبهت سركيس افنـدى ولم يتكلم .. ودعالى لعوضين بطول العمر ..

وانصرفت الى البندر وأنا أشعر براحة .. وأحس بأنى رددت الأمور الى نصابها .. ونمت فى اللوكاندة .. ولكنى تيقظت فى الفجر على البعوض يأكل وجهى .. وعلى خبر مفاجىء سرى فى كل البلدة .. أن عوضين وجد مقتولا فى حقله . والفاعل مجهول .. !

وحضر سركيس أفندى فى الصباح الى اللوكاندة .. وكان يحمل طبنجة على صدره .. ويصاحبه خفير الغيط ..

وقال لى ان عوضين وجـد مقتولا .. الأشقياء قتلوه على تار بايت .. مسكين عوضين .. !

وأردف وهو ينظر الى نظرة جامدة :

ــ تشوف حضرتك نعين مين خولى بدله عشان يشوف الأرض ؟

ــ اللى تشوفه يا سركيس أفندى ..

وعاد ينظر الى نظرته الجامدة الجافية وعيناه لا يهتز لهما رمش ..

وأجبته وأنا أتجنب النظر الى عينيه :

ــ شوفها انت يا سركيس أفندى .. بس خد بالك من الحسابات شوية ..

ــ أنا محسوبك يا سعادة البك ..

ودار على عقبيه وخرج ..

وظلت خطواته تلاحقنى وتدوى فى أذنى مدة طويلة ..

وأذركنى اليأس .. ولم أستطع أن أبرىء نفسى من الجريمة ..

لقد قتلت رجلا .. بعد ساعة من وصولى الصعيد قتلت رجلا ..

وتذكرت كلام الخواجة مترى ..

ان الأرض هى لحم الفلاح .. والذى ينتزع من الفلاح أرضه ينتزع لحمه .. ولا فائدة من أن تقول للفلاح أنت تخرق القانون .. فماذا يعنى القانون بالنسبة لرجل جاهل .. ؟!

ان رجليه تغوصان فى الطين .. وحياته ينهش فيها المرابى وبنك التسليف والمالك والمستأجر وسركيس أفندى .. كل واحد يطلق عليه الرصاص .. !

***

ومرت يومان على اقامتى بالصعيد ..

النتيجة على الحائط تقول انى فى عام ١٩٥١ .. ولكن كل شيء حولى يمشى ببطء جدا .. عشرات السنين وراء التاريخ .. !

القسوة فى كل مكان .. فى الحر .. فى التراب .. فى الجفاف .. فى الأرض .. فى الفيضان .. فى الوجوه .. فى العيون .. فى الثمن الذى يدفعه كل انسان فى مقابل اللقمة .. !

الفلاح الذى يمرض مقدما بالبلهارسيا والملاريا والرمد قبل أن يعى وجوده .. ثم يمشى يلهث ويجر قدميه .. ويعزق .. ويحرث .. ثم ينازعه جاره على قيراط برسيم ويقتله .. !

والفلاح الآخر المحظوظ الذى يملك فدانا ويعيش كالجرادة على حافة الترعة .. لا يعرف السينما ولا الساعة ولا الدكتور .. ثم يضع حفنة من تراب العدرة فى عينيه .. ويعطيه رجل مبروك حجابا يعلقه على صدره ليشفى .. بينما يذهب المبروك ليداوى عينيه فى القاهرة عند طبيب العيون ..

والتاجر الريفي العبيط الذى ينظر الى البورصة كما ينظر الى السماء والقدر .. وكرامات الأولياء .. ويفلس بغباء .. ويموت بغباء كما يموت حماره دون أن يعرف السبب ! ..

وابن العمدة الوارث الذى ينفق أمواله على راقصة فى مصر ويموت من الخمر والمخدرات .. كل هؤلاء ينبحون ويتعاوون .. كأنهم فى غابة ..

قسوة الحياة تبتز أرواحهم .. وأخلاقهم وتحولهم الى أجلاف غلاظ .. وقد أحسست بهذه الغلظة تتسرب الىّ وتدفعنى الى رفع صوتى بالسباب والشتائم ..

سنة واحدة أعيشها هنا .. وأصبح مثلهم .. أتكلم بغلظة .. وأقتل وأسرق وأنهب .. لقد نسيت ذقنى فلم أعد أحلقها .. ونسيت هندامى .. ورباط عنقى

ونسيت الرجـل الذى قتل من أجلى .. عم عوضين .. الذى أطلقوا عليه الرصاص .. لأنى اخترته ليدير زراعتى ..

من الذى قتـل عوضين !! .. سركيس أفنـدى ؟! .. الخفراء بتحريض من سركيس أفندى ؟! .. أنا بغبائى !! .. الفدادين التى جئت أجرى من القاهرة لأجمع ايرادها ؟! ..

الحر .. التراب .. الجفاف ..

لقد قيدوا الحادث فى دفتر البوليس ضد مجهول واحد .. !

ليس لى ان اتحدث عن الغلظة ..

ان القتل عمل غليظ فعلا .. ولكن تناول النقود المغمسة بالدم

وانفاقها فى هدوء فى بارات القاهرة بين الرقص والضحك .. عمل أشد غلظة .. !

وشعرت باليأس .. وبالنفور ..

وشعرت بغلظة هذه التجارة التى تأتينى أرباحها كل عام ..

وشعرت انى شريك فى كل الجرائم التى حدثت فى زمام العنانية منذ أن وضعنا يدنا عليه ..

***

وعند الظهر .. كان سركيس أفندى يتجول بى فى غيط القطن فى مظاهرة من الأولاد الصغار الذين يجمعون القطن ويغنون .. وكان يحاول ان يطلعنى على حسن ادارته وحزمه .. يطارد الاولاد ويشخط فيهم ويجرى خلفهم بعصا قصيرة من الخيزران .. ويضربهم .. وكانت الشمس مشرقة فوق رءوسنا .. تلسعنا بشواظ من نار ..

وأغمى على أحد الصغار من طول وقوفه فى الشمس وحملوه الى الترعة ليرشوا على وجهه الماء .. وكانت يده النحيلة مضمومة الى صدره تقبض على كسرة خبز جافة ..

واكتفيت بما رأيت .. ولم أنتظر نزول المساء .. وأخذت قطار العودة الى القاهرة .. وقد صممت على أن أطلق هذه الأرض الى الأبد ..

***

وكان أول شىء فعلته حينما وصلت القاهرة هو أنى كلمت نانى لأقول لها :

ـ سوف أترك الأرض نهائيا .. سوف أبيع فدانين وافتح ورشة لاصلاح السيارات أعمل فيهـا كمهندس .. عملي الوحيد الذى أتقنه ..

أنا لا أنتمى للأرض .. ليست لدى الشجاعة لأقتل وأسرق ..

ان رؤية القسوة ترهقنى .. والاستمرار فى هـذه الحياة التى اختارها أبى لنفسه مستحيل .. مستحيل .. بالنسبة لى ..

ـ وحياتك .. والمستوى المادى الذى تعيش فيه .. كيف تترك ثروتك ؟ .. ولمن تتركها ؟ ..

ـ انى لا أتركهـا .. ان الفـلاحين يضعون يدهم عليهـا .. يستأجرونها ولا يدفعون مليما .. ولا أستطيع أن أقاضيهم .. لقد تعبت .. تعبت من المناظر التى رأيتها ..

ـ أنت طيب أكثر من اللازم ..

ـ لست طيبا .. ولكنى لا أستطيع .. لا أستطيع أن أكون شيئا آخر غير نفسى .. أفضل أن أعيش حياة صغيرة أملكها .. عن أن أعيش حياة كثيرة تملكنى .. أريد أن أكون حرا .. أريد أن أقطع صلتى بكل ما يفرض على واجبات لا احبها .. انا اكره الواجبات كلها ..

ـ وهل تستطيع الخـلاص من واجباتك كلها ؟ .. انى أحاول الخلاص من واجباتى الزوجية منذ سبع سنوات ولا أسـتطيع .. لا أستطيع سوى أن أجن فقط .. الجنون هو الشىء الوحيد الذى وصلت اليه .. وأنا لا أريد لك أن تجن مثلى .. تستطيع أن تتخلص

من أرضك .. ولكن ستبقى هناك واجبات على كتفيك لا خلاص منها ..

ـ نانى أرجوك ساعدينى .. لا تسدى أمامى المنافذ .. لا تبنى فى وجهى حائطا غليظا .. هات يدك لنحفر سويا حفرة فى الجدار نهرب منها الى عالم نحبه ..

ـ نهرب الى أين .. أنت تحلم ..

ـ لا توقظينى اذن .. دعينى أحلم .. دعينا نحلم معا .. نانى أرجوك ..

ـ يا حبيبى ..

ـ نانى ..

ـ يا حبيبى ..

ـ أريد أن أستريح .. أن أضع رأسى على صدرك وأستريح .. أن أجد نفسى بين ذراعيك .. أن أشعر بلحظة رضى .. أنا ألهث من التعب هاربا من عالم لا أعرفه .. ولا أحبه .. اليك أنت ..

ـ يا حبيبى ..

ـ تعالى يا نانى ..

وسكتت .. وسمعتها تبكى ..



— ٨ —

كنا وحدنا أنا وهى ..

وكنت أنظر فى عينيها فى شغف .. ولا أشبع .. وأتطلع فى ملامحها الدقيقة .. وتعبيرات وجهها .. وخلجاتها .. وأستشف نفسها •• وأهيم فى وجودها وأندمج فيه فى استمتاع وتلذذ عميق ..

وكانت نظراتنا تتماسك وتتشبث ببعضها .. وتلوذ ببعضها .. وتسعى كفى الى كفها الصغير لتأخذه وتنضم عليه فى حنان ..

ثم أرفع يدها الى شفتى أقبلها .. وتنام شفتاى فى باطن يدها ..

وأشعر بها تقبلنى فى خدى .. وأشعر بشفتيها تبحثان عن شفتى وهما ترتجفان ..

وتلتقى شفتانا فى فرحة .. ونغيب عن وعينا .. وعن الدنيا .. ونذوب فى بعض .. فى فيض من النشوة .. منتهى النشوة ..

أحبك .. أحبك جدا .. أحبك طول عمرى .. أحبك الى أن أموت وبعد أن أموت •• وقبل أن أولد .. أحبك .. أحبك .. وما لزوم الكلام والشعور يخنقنا .. يسكتنا ..

نانى .. أنا لا أريد شيئا سواك أنت .. سوى هذه اللحظة .. تنتظر قليلا لأنعم بها.. أنا لا أريد أن أستيقظ على هذه اللحظة وقد انتهت انى أجد فيها سبب وجودى .. لقد خلقت من أجل هذه اللحظة .. خلقت لأكون لك .. نانى .. هذه لحظة تبدأ من عندها أفـراحى وآلامى ..

وتلتقى شفتانا فى فرحة .. فى لذة ..

هل أنا أحلم ؟.. قبلينى لأفيق .. بل قبلينى لأحلم أكثر ..

ــ يامجنون .. يامجنون ..

ــ أنا لست مجنونا .. أنا كأعقل ما أكون طول عمرى ..

ــ اذن فأنا المجنونة .. أنا .. أنا ..

ــ أنت حبيبتى ..

ــ ياحبيبى يامجنون ..

ــ فيم تفكرين ..؟

ــ أفكر فى أنى ولدت من جديد .. وأنى أعيش معك فى عالم ليس فيه سوانا .. عالم لاينظر الينا فى حسد وحقد .. عالم لا يوقظنا من سعادتنا ..

ــ لا أهمية للعالم مادمنا معا ..

وأمسكت بى فى خوف وهى تتحسسنى لتتأكد من وجودى بجوارها وهمست :

ــ لماذا تتأخر الآمال هكذا دائما ؟.. لماذا تسقط الأمطار بعد أن يموت الزرع من الجفاف ؟!..

ــ ان الزرع لم يمت .. انه مازال يانعا مخضرا ..

وبكت على كتفى وهى تقول بصوت متهدج :

ــ ياوهمى الجميل .. ياوهمى الجميل ..

ــ أنا لست وهمك .. أنا حقيقتك .

ــ أبدا .. أنت وهمى .. أنا لا أستطيع أن أمسك بك .. أنت

تمر منى .. لا أجدك بجوارى ..

ـ أنا بجوارك دائما ..

ـ أنت فى وهمى •• فى قلبى •• فى مهجتى •• وسواد عينى •• ولكنك لست فى بيتى.. لست فى واقعى.. عرق كفيك ليس فى الفراش الذى أنام فيه .. شعرات رأسك ليست على وسادتى .. ثيابك ليست مع ثيابى فى سلة الغسيل .. بقايا الخبز الذى تأكله ليست على مائدتى .. قصاصات الورق التى تتخلف منك لا أجدها على أرض غرفتى .. ولدك ليس منى .. وولدى ليس منك .. صوت سعالك الحاد لا أسمعه فى حجراتى الباردة .. أنا أعيش فى غربة .. أعيش على وهم وجودك .. على أمل رؤيتك .. هل تعرف كيف أحبك ؟.. هل تعرف كيف تحب المرأة الرجل ؟.. انها تحلم أن تكون سكنه وطعامه وشرابه .. تحلم بأن تجمع شتاته على راحتيها ..

ان الرجل يلثم المرأة فى شفتيها ثم يمضى فى طريقه .. أما المرأة فهى تعيش فى تلك القبلة ..

أتعرف لماذا أتيت معك الى هنا ؟.. لأتزود من وجودك بمئونة أعيش بها .. لأزود وهمى بثروة من الخيالات يتغذى عليها بقية حياته .. لأتذكرك أكثر .. وأتعرف عليك أكثر .. وأخاطبك فى لحظات وحدتى وصمتى ولكنى لن أعود الى هنا .. لن أعود الى لقائك أبدا لأن هذا ليس حبى .. ليس أنا .. ليس أنا ..

وأخذت تهزنى بشدة .. وهى تكرر كلماتها بصوت متهدج .. هذا ليس حبى .. ليس أنا .. لن أعود الى هنا أبدا ..

ثم انفجرت تبكى بمرارة ..

وصرخت وأنا أضمها الى صدرى فى حنان :

ــ سوف تتزوج .. سوف تتزوج .. سوف أطلق زوجتى .. وأتزوجك بعد أن يطلقك زوجك ..

ونظرت الى فى فزع هاتفة بين دموعها :

ــ مستحيل .. مستحيل .. هذا هو المستحيل .. لا أستطيع .. أبدا ..

ــ ولماذا لاتستطيعين ؟.. ألا تحبيننى ..؟!

وهمست فى ضراعة :

ــ نانى .. نانى ..

ــ أخاف من الله .. ومن رجلى .. ومنك .. ومن عيون أولادك .. ومن عيون أولادى ..!

ــ كل هذا لن يمنعنى .. ولن يمنعك ..

ــ هناك شىء فوق كل هذا يمنعنى أنا ..

ــ ماهو ..؟

ــ نفسى .. أخاف من نفسى .. ان الماضي يتغلغل فى حواسى .. أنا لم أتزوج زوجى كرها ولا غضبا .. لقد ارتضيته .. صحيح أنى لم أستطع أن أحبه .. ولكنى عاشرته .. ان الرجال لايعرفون العشرة كما تعرفها النساء .. لأنهم يعيشون كل وقتهم فى الشارع .. ولكن العشرة تتغلغل فى الحواس .. فى الدم .. فى اللحم .. انى لن أكون خالصة لك .. سوف تعود حياتى كلما دق علينا ولدى الصغير باب

غرفة النوم .. وكلما تطلع الينا بعينيه الواسعتين فى تساؤل .. لن أستطيع أن أسكته حينما يقول : بابا ..

انه أفعالى التى تلهث خلفى ..

وسكتت لحظة ثم رفعت وجهها وقالت :

ــ وأنت كيف تواجه زوجتك بكلمة الطلاق ؟.. كيف تواتيك القوة لتنظر فى عينيها وأنت تلقى عليها اليمين ؟.. وحينما يمسك الطفل بذيلك وأنت خارج .. كيف ستجد القوّة لتنفض يده الصغيرة عن ثوبك ؟.. انه أفعالك التى فعلتها .. كيف تنكرها ..؟!

ــ لقد حدث كل هذا خلسة دون أن أدرى ..

ــ ولكنه حدث ..

ــ سوف أتحدى الدنيا كلها لأحصل عليك ..

ــ سوف تتحدى الدنيا كلها .. ولكنك لن تستطيع أن تتحدى نفسك .. لن تستطيع أن تتحدى أفعالك .. ان أفعالك هى ذراعاك ..

ــ سوف أقطع ذراعى لأصل اليك ..

ــ لا أحب أن أراك مقطوع الذراعين .. لقد أحببتك فى كمالك وعذابك وضعفك .. ولم أحبك وأنت تقسو وتقتل وتقطع رحمك وأوصالك .. سوف تصبح رجلا آخر .. وسوف أصبح امرأة أخرى ولن يتعرف كل منا على صاحبه .. سوف نكون شريرين ينتقم كل منا من الآخر .. !

ــ سوف أحبك الى الأبد مهما حدث ..

ــ أما أنا فأعلم جيدا ماذا سوف أفعل اذا تزوجتك ..

ـــ ماذا ستفعلين ؟..

ـــ سوف أنتقم منك ..

ـــ أنت مجنونة .. أنت مجنونة ..

ـــ أنا لا أستطيع أن أخون نفسى .. انى أحبك بنفسى .. وأتقرب اليك بروحى وأعشقك من خلال روحى .. ولو خنت روحى فسوف أخونك وأخون الدنيا ..

ـــ أنت لا تحبيننى .. أنت تكرهيننى ..

وبهتت لهذه الكلمة تخرج من شفتى ونظرت الى صامتة وبكت ..

وأمسكت بها من كتفيها .. ورحت أقبلها فى كل مكان من صدرها وأهتف :

ـــ لن يكون فى الدنيا حب اذا لم تتزوج ..

ـــ ليس فى الدنيا حب ..

ـــ لاتقولى هذا ياناني ..

ـــ ان الحب فى قلوبنا وليس فى الدنيا .. انه فى وهمنا فقط .. ان الدنيا لا تحتمله .. ولا تستطيع أن تحققه ..

ـــ لا تقولى هذا الكلام .. انى أختنق حينما أسمعك ترددين هذا الكلام ..

ـــ ان الواقع هو الذى يخنقنا جميعا .. ان الحب فى قلوبنا عميق .. عميق .. ولكن الحب فى الواقع يختنق بالشهوة والغيرة والأنانية والمصلحة والعادة والملل والضجر ، وأنا لا أريد أن أخنق حبى لك بالواقع .. أريد أن أحتفظ به فى وهمى وأغذى به خيالى ..

ـ سوف تكونين سكنى وبيتى وحياتى ..

ـ لقد فات الأوان .. لقد سقطت الأمطار بعد أن جف الزرع .. لا تعذب نفسك وتعذبنى معك .. ولا تثرثر كثيرا كالأطفال الصغار .. أنظر الى .. احتضنى بذراعيك .. دعنى ألمسك هكذا .. دعنى اتملى بالنظر اليك .. دعنى أتزود بمئونة أعيش عليها العمر كله ..

وأخذت تنظر الى فى هيام .. وكان فى عينيها فزع ..

كانت فى عينيها نظرات امرأة تودع شيئا لن تراه ..

وأصابتنى عدوى الفزع الذى يطل من عينيها .. وأمسكت بها أهزها ..

ـ اننا سوف نلتقى مرة أخرى .. سوف نلتقى كل يوم .. كل لحظة .. أليس كذلك .. ؟

وأجابت فى نبرة جامدة ثابتة وهى تنظر فى وجهى :

ـ اننا لن نلتقى ..

ـ مستحيل .. مستحيل .

ـ أنا لا أحب هذا اللقاء المسروق .. انه ليس حبى ليس أنا .. ليس أنا ..

ـ سوف نتزوج .. ونحقق الحب الكبير الذى تحلمين به ..

ـ ان حبى يتحقق فى قلبى وحده .. فى وهمى .. ان كل الأمكنة تضيق به .. وكل الحلول تضيق به .. انه المستحيل الذى أحتضنه فى ضلوعى .. وقد ضاقت الدنيا به على رحابتها ..

وانهارت تبكى .. وكل جسمها يرتجف ..

ونظرت الى من خلال دموعها وغمغمت :

ـ لماذا أعذبك ؟.. لماذا تركتنى أعذبك هكذا ؟.. لماذا لاتقتلنى ؟!

ـ نانى .. كفى هذيانا ..

ـ لماذا لا تقتلنى .. ؟ !

ونظرت الى .. نظرت الى فى شوق طفلة .. وهى تتعشقنى بنظراتها

ـ هل عندك حل ؟..

ـ الحل هو أن أتزوجك ..

وضحكت ضحكة هستيرية وغمغمت :

ـ أيها العجوز .. انك لاتصلح زوجا لى .. انى أرفض أن أتزوجك

وقبلتنى فى جبينى وهى تقول :

ـ أريد أن أحفظ هذه الخطوط الرفيعة التى فى جبينك خطا خطا حتى أتذكرها كلها وأنا وحدى .. وأستحضر صورتك فى خيالى .. وأراك أمامى هكذا .. وأنا جالسة وحدى فى البيت أرتجف من البرد ..

ـ نانى .. لماذا جئت معى الى هنا ؟.. لماذا تقولين هذا الكلام ؟..

ونظرت الى .. ولم تتكلم .. وضحكت ضحكة غريبة يمازجها البكاء ..

ـ لماذا فعلنا كل مافعلناه ؟! .. لماذا تمسكين بيدى هكذا ؟! .. كأنك تعتصرينها ..

ـ أريد أن أتخلل يديك لأصل الى روحك .. أريد أن أستولى على روحك .. أريد أن آخذ روحك ..

وضحكت فى حزن :

ـ أنت تعذبيننى ..

ـ الدنيا هى التى تعذبنا .. الدنيا هى التى خدعتنا .. الدنيا ادخلتنا فى غرفة مظلمة لنختار ملابسنا .. فلم نستطع أن نتعرف على ثيابنا فى الظلام .. وخرجنا كل واحد يلبس لبسا غير لبسه .. ثم تمزقت ملابسنا من ضيقها .. وبليت هدومنا الحقيقية من طول وضعها على الرف .. وفى النهاية لم تبق لنا ثياب نستتر بها أنفسنا ..!

ـ سوف نفصل لأنفسنا ثيابا جديدة ..

ـ سوف نفصلها من الخرق القديمة .. ولن تسترنا الا لحظات ثم تتمزق ثانية ..!

ـ نانى .. لماذا تتكلمين بكل هذا اليأس ؟!..

ـ لأنى لا أجد حلا ..

ـ ولكنك تجديننى الى جوارك .. أليس كذلك ..؟!

ونظرت الى فى ارتياب وأخذت تتحسسنى لتتأكد من انى موجود فعلا ..

ـ نعم .. هذا أنت كلك حولى .. كلك حولى ..

وامتلأت عيناها دموعا ..

ودقت ساعة الحائط عشر دقات .. فرفعنا رأسينا فى وقت واحد فى فزع ..

ـ الساعة بلغت العاشرة .. لقد سرقنا الوقت .. يجب أن أعود حالا ..

وكانت الدقة الأخيرة مازالت تدوى فى أذنى .. وكان صوتها كئيبا ووقفت تسوى ثيابها وتصفف شعرها أمام المرآة .. وكانت تعطينى ظهرها .. وكان قلبى يهبط .. ويهبط فى ضلوعى .. حتى يصل الى قدمى .. وأسرعت اليها أحتضنها ..

ــ لا تنزلى الآن ..

ــ كيف ؟..

ــ ابقى لحظة .. أريد أن أكلمك قليلا ..

ــ ماذا تريد ؟..

ــ أريد ..

وتلعثمت .. ولم أعرف ماذا كنت أريد ..

كنت أريد أن أقول أى كلام لأحتفظ بها أطول وقت أمامى .. اتطلع اليها .. وأشم عطرها.. وأرى شفتيها وهما تنفرجان.. وأرى عينيها وهما تمتلئان بالشوق ..

كنت أريد أن أسمع صوتها .. وهى تجاوبنى بأي كلام .. وقلت لها فى أسى :

ــ نانى .. لا أريد أن أحس أنى سوف أفقدك .. ان هذا الاحساس يقتلنى .. يقتلنى ..!

ــ انك لن تفقدنى .. سأعيش لك دائما ..

ــ هل هذا صحيح ؟..

ــ لايوجد شيء صحيح فى حياتى غيرك أنت ..

ــ ولكنك ذاهبة الآن .. أليس كذلك ؟

ـ أينما ذهبت فسوف تكون معي .. فى كل بيت أدخله .. وفى كل كتاب أفتحه .. وفى كل نغمة أعزفها ..

ـ لا أريد .. لا أريد هذا اللقاء .. أنا أريدك أنت لحما ودما ..

ونظرت الى فى اشفاق .. ولم تتكلم ..

وخلف العينين المشفقتين . كانت تطل الحيرة .. حيرة لا حد لها .

كانت تسألنى بعينيها .. ماذا أستطيع أن أفعل ياحبيبى ؟.. أنا أحبك وأريدك .. وأتمناك .. ولكن ماذا أفعل ؟ كانت تتشبث بى فأتقطع فى يديها .. ولا تجدنى ولا أجدها .. وكلانا ممسك بالآخر ..

كنت أقرأ كل هذا فى عينيها .. وأنا أنظر فيهما .. ويداى مطبقتان على يديها ..

ولم أجد شيئا أقوله

وصحبتها فى عربتى .. ولبثت صامتا طول الطريق ..

كنا سجينين نحن الاثنين .. سجينى عاطفة لا تستطيع الخروج فى النور .. عاطفة تلوذ بالظلام .. عاطفة تعاقبنا على السعادة التى نسرقها .. بالسجن .. والحياة فى الخفاء فى فزع ..

وكنت أتساءل .. لماذا نعاقب فى جهنم .. والعذاب يتعقبنا على الأرض ؟!

الجزاء يلحق بنا لحظة بلحظة .. قبل أن نلتقط أنفاسنا ..

وكنت أشعر بالضيق .. وبالحزن .. وبأنى مظلوم .. وأحسد الفضلاء على السكينة التى يعيشون فيها ..

كنت أتعذب ..

ولم أجد ما أبثه سخطى سوى العربة الحديد التى أركبهـا .. فضغطت بقدمى على البنزين وانطلقت أطير فى سرعة خطرة .. وكان الاحساس بالخطر يريح أعصابى .. ويسكت الضجة التى فى دماغى ..

وكانت نانى تتشبث بذراعى فى خوف ..

ــ ماذا دهاك ؟.. لماذا تسرع هكذا ؟.. هل تريد أن تنتحر ؟.. هل تريد أن تموت ؟!..

هل أريد أن أموت ؟ ربما ..

ــ هل تحبين الحياة ..؟!

ــ نعم أحبها .. لأنك فيها ..

ــ هل تجزعين من الموت اذا متنا معا ..؟!

ــ لماذا تقول هذا الكلام ؟ أنت تفزعنى ..

ونظرت الى بعينين واسعتين يغمرهما الحنان ..

وارتاحت نفسى وأنا أنظر اليها ..

وكنا قد اقتربنا من البيت .. فهدأت من السرعة .. وتوقفت .. وكانت هناك عربة أخرى قادمة من الأمام .. وأضاءتنا بكشافاتها ..

وهمست نانى فى ذعر .. انه عزيز زوجى ..

ونزل عزيز من العربة .. ووقف ينتظرنا .. وكانت تبـدو عليـه الدهشة ..



- ٩ -

لم أبرح البيت طوال ثلاثة أيام ..

عصفت بى حمى ألزمتنى الفراش .. ولبثت أهذى .. وأنلوى من آلام حادة فى عظامى .. وأتقلب فى طوفان من اللهب .. ثم بدأت أفيق

وسكنت روحى مثل شراع ألقت به الريح على شاطىء مهجور ..

وفتحت عينى لأجد زوجتى واقفة عند رأسى .. وفى يدها كوب من الليمون .. وعيناها واسعتان .. مثل بحر من العسل ملىء بالحنان ..

وأراحت رأسى على كفيها لتسقينى ..

ونظرت الى عينيها .. وخارت قواى ..

ورنت فى أذنى كلمات نانى :

ـ كيف تواجه زوجتك بكلمة الطلاق ؟.. كيف تواتيك القوة لتنظر فى عينيها وأنت تلقى عليها اليمين ؟!.. كيف تجد القوة لتنزع ولدك الصغير من ثوبك وهو يتشبث بك عند الباب ؟!.. انه فعلتك التى فعلتها ..

انك تستطيع أن تخون الدنيا كلها .. ولكنك لا تستطيع أن تخون نفسك .. لاتستطيع أن تنكر فعلتك ..

انك حينما تخون نفسك تخوننى .. فأنت تحبنى بهذه النفس .. وتعشقنى من خلالها .. مستحيل ..

ونظرت الى زوجتى .. ورأيت المستحيل ..

رأيت المستحيل فى البحر الساذج الحنون فى عينيها .. وسمعت

صوته فى بكاء ولدى .. وهو يناديني ..

وتذكرت كلمات نانى .. وأنا أقول لها : سأتزوجك .. سأحقق الحب الكبير الذى تحلمين به .. وهى تجاوبنى فى ضعف :

ــ ان حبى يتحقق فى قلبى وحده .. فى وهمى .. ان كل الأمكنة تضيق به .. وكل الحلول تضيق به .. انه المستحيل الذى أحتضنه فى ضلوعى ..

كنت أشعر بهذا المستحيل فى تلك اللحظة ..

كنت أشعر بارادتى تتكسر على عينى زوجتى وهى تنظر الى .. ورغباتى تذوب أمام عربدة ولدى الصغير وهو يضع يده فى كمى ..

ماذا أفعل أمام البراءة .. ؟!

كيف أنظر الى البراءة فى عينيها وأصفعها ..؟!

لايوجد حل سوى أن أطوى ضلوعى على المستحيل .. وأعيش به وحدى فى الظلمة .. أسجنه معى .. ويسجننى معه ..

يئست تماما .. وكانت زوجتى تحدثنى فى نبرة أسى :

ــ هل سمعت الصراخ أمس ؟

ــ أى صراخ ..

ــ لقد كنت محموما ..

ــ ماذا حدث ؟

ــ لقد تشاجر عزيز مع زوجته وضربها وكسر ذراعها .

وسقطت الكوب من يدى .. وغامت عيناى .. وأظلمت الدنيا أمامى فترة ..

وأفقت لأجد زوجتى تدلك خدى .. وتربت على شعرى .. ولم تفطن الى سبب ألمى .. لأنها عادت تقول فى حزن :

ـ مسكينة نانى .. ان زوجها رجل متوحش ..!

ومسكين أنا أيضا .. ياليتها تعلم كم أنا مسكين ..

***

وفى الظهر تلقيت هذا الخطاب من نانى :

أكتب لك بيدى اليمنى . ويدى اليسرى فى الجبس .. شكرا لله .. انه أبقى لى يدا سليمة أكتب لك بها .

لقد ضربنى زوجى وكسر ذراعى .. مسكين أنا لا ألومه .. ولكننى ألوم نفسى .. فقد كنت قاسية فى معاملته ..

أرهقنى بشكوكه وأسئلته وسبابه وفظاظته وغلظته .. حتى جن جنونى وتطاولت عليه .. ففقد صوابه وهجم على كالوحش ... وأخذ يضربنى حتى كسر ذراعى .

ليته أتى على البقية الباقية منى .. لاسترحت .. ليته أسكت قلبى الذى يهتف باسمك ..

ان وجودى يرهقنى ..

ان عواطفى تصرخ .. وأنا عاجزة عن ضبطها .. عاجزة عن اطلاقها .. أسير فى الحياة كدمية مشطورة نصفين .. تائهة مترددة .. نصف ثائرة نصف مستسلمة .. أقوم بأفعال لا أقتنع بها .. وأقتنع بمبادىء لا أعمل بها .. ضائعة .. ضائعة تماما .. أملى الوحيد مستحيل ..

لقد ظللت أفكر بعد أن افترقنا .. كيف أوتيت الجرأة لأفعل كل

هذا ؟. كيف خرجت من بيتى لأقابلك ..؟

كيف جرؤت ..؟

ولكنى الآن أعرف كيف حدث هذا ..

ان العذاب الذى أعيش فيه أفقدنى القدرة على التمييز .. كنت كالمحكوم عليه بالاعدام الذى أباحت له المحكمة أن يطلب طلبا قبل أن يموت ..

لقد أهدرت الظروف السيئة حياتى .. واستباحت دمى . وطاردتنى حتى سلم المقصلة ..

ماذا هناك أكثر من أن تقطع رأسى ؟.. لا شىء ..!

وطلبت أن أراك ..

طلبتك قبل أن أموت ..

طلبتك وأنا أختنق فى غرفة الغاز ..

وأحسست لفترة وجيزة أن أى شىء من حقى .. أى شىء .. حتى أنت ..

آه .. يا الهى ..

انى أستطيع أن أخاطبك أنت وحدك .. ولكنى لا أستطيع أن أخاطب الناس ..

أنت وحدك الذى تفهمنى لأنك مطلع على داخلى .. لا أحد يفهمنى سواك ..

أنا ساقطة فى نظر الناس ..

ولكنى أعيش فى جهنم ..

جهنم .. هى حياتى ..

لقد دفعت ثمن خطيئتي فى الدنيا .. ونفذت العدالة أمرها فى مصيرى

انتهى أمرى ..

لقد عوقبت وأعاقب كل يوم وكل لحظة .. بل أنا العقاب نفسه ..

ان الخطيئة شقائي وليست لذتى ..

انى أحسد الفضلاء ..

ان الفضيلة أمان وسكينة وحرية وسعادة ..

انها الجنة ..

انها مكافأة جميلة ..

أنا أعجب للفضلاء ألذين ينتظرون ان يكافأوا على فضيلتهم بالجنة أى جنة .. وهم فى الجنة فعلا ..

***

ياحبيبى ..

أجمل شيء فى هذه اللحظة أنى وحدى .. لا شيء معى سوى خيالك

آتمثلك أمامى بقامتك الطويلة .. ووجهك الأسمر الرقيق ..وعينيك الحائرتين وهما تتدفقان حنانا وطيبة .. وأسمع صوتك الأجش .. ونبراتك الرحيمة .. وأعيش فى انسجام مع روحك .. أتملى برؤية نفسى فى مرآتك .. فى كلامك .. وخطواتك .. ولفتاتك .. وضحكاتك ..

الساعة التى قضيتها معك .. تزودنى بزاد من الموسيقى لاينفذ .. يملأ وحدتى بالأنغام .. ويكشف لى جمالا خفيا وراء كل شيء ..

أتنسمه بحواسى فى لذة ..

فكرت كثيرا لماذا أحبك كل هذا الحب ..

لم أعرف ..

ربما لأنك حريتى ..

ربما لأنك ارادتى التى فرحت بها لأول مرة وأنا أقتحم بها الظروف وأحطم كل ماحولى من خير ومن شر لأصل اليك ..

ربما لأنك أنا .. وقد ظفرت بك .. وبنفسى فى ذات الوقت ..

ولو أننى قد اخترت زوجى بكامل حريتى .. لما أحببتك .. ولما عرفتك ..

أنانية ..

ولكن لا .. انها ليست أنانية الى النهاية .. هناك سر آخر ..

سر فى الدنيا .. كشفت لى عنه فأصبحت أحبها .. وأشعر بجمالها وأهتز لنسماتها .. وأتلذذ بالحياة فيها ..

سحر خفى فى الوجود دلنى عليه حبك ..

ما أكثر مايستطيع الحب أن يفعله ..؟!

انى أتذكر حال زوجى منذ سنوات حينما كان يحب أختى .. كيف كان يضىء بشفافية حلوة .. وكانت أساريره تضحك فى طلاقة .. وحركاته تنساب فى خفة ومرح ..

وأتأمله الآن .. وهو ثقيل معتم جامد غليظ .. يتحرك فى لزوجة وبطء .. الكراهية تشيع فى جسمه كما تشيع الرطوبة فى المفاصل .. كيف أشعر أحيانا وهو ينظر الى .. انه سوف يقتلنى .. كيف أحاول

المستحيل لأفهمه دون أن أستطيع ، وكأنه من مادة أخرى لا أستطيع الامتزاج بها .. مادة ثقيلة ترسب فى نفسى ولا تذوب ..

كيف نتعاشر منذ سنوات .. ونحن منفصلان .. نتلامس بالجسم فقط .. يجمعنا الاشفاق أحيانا .. فأتصدق عليه .. وأنا أتأفف .. كأنى أتجرع دواء مرا .. ثم أعود فأثور عليه وأتلذذ بحرمانه وتعذيبه

والآن .. الآن وأنا أحبك .. كيف أشعر أحيانا .. أنى أحب كل مافى الدنيا .. وأننى أحبه .. حتى هو أيضا .. وازداد قربا منه ومن أولادى .. وبيتى .. وأشعر بالصلة الوثيقة التى تربطنا كلنا ..

حبك رد لى قدرتى على أن أحب .. وأعطى .. ومنحنى القـوة لأغتفر .. واتحمل ..

ان الكراهية شىء فظيع يوقف الدم فى القلب ..

وقد عشت طول عمرى أحارب الكراهية بدون سلاح .. أحاربها وأنا أكره أن أحاربها .. وأكره نفسى . كنت تعيسة . تعيسة جـدا أتعس من أن أدافع عن حياتى ..

ولكنى الآن أحارب الدنيا .. بك ..

***

فكرت فيك وأنا أنام ..

واكتفيت وأنا أغمض عينى بأن أفكر فيـك وأعيش فى معنى وجودك ..

ولم يخطر ببالى أن أذهب اليك بجسمى .. وأحاول أن أقابلك .. كان شعورى نحوك .. وشعورى نحو نفسى .. أكبر من ذلك الأجر

الزهيد الذى تعدنى به هذه المقابلة ..

كان ملتقانا فى الخيال .. أرحب بكثير من الغرفة التى التقينا بها فى الواقع .. وكانت مسرتى بك أعمق ..

لا .. ليست الفضيلة .. كما تبادر الى ذهنك .. هى التى منعتنى من أن أسعى اليك .. فأنا لست امرأة فاضلة . وانما حبى هو الذى منعنى احساسى بأن أى لذة أفوز بها معك بالجسد لن تطفىء عطشى .. ولن تساوى عطشى .. وكل ماستفعله .. انها سوف توسع هوة المستحيل التى تقف نحن الاثنان على حافتها .. وتزيد حسرتنا .. ويأسنا .. وعذابنا ..

وطمعى فى أن أفوز بك كاملا هو الذى قعد بى فى مكانى لاأبرحه ولا أحاول أن أسعى اليك لألقاك .. ولا أرغب فى هذا القسط الزهيد من اللذة ..

لم أكن فاضلة ..

كنت أريد اللذة كلها .. ولم يكن يشبعنى قسط منها .. لم تكن تشبعنى رشفة من حافة كأسك .. أو لمسة من وجودك .. ولهـذا آثرت أن أعيش فى معنى وجودك .. مع صورتك وفكرتك ..

شكرا لك ..

ان حبى يحمينى منك ويحمينى لك ..

ويحميك أنت أيضا لى .. كأجمل ماتكون مع زوجتك وولدك ..

ان الحب شعور طيب مهما كانت صورته .. ولا يمكن للواقع أن يساومه .. لأن الواقع أضيق منه وأرخص .. ولو أنى أصبحت

زوجتك فلن يجد حبى لك كفايته .. وسوف يختنق فى التعـامل اليومى المبتذل مع الطباخ والبواب والبقال ..

ان الحياة قاسية .. قاسية ..

الحياة تدوسنا .. وتدوس مشاعرنا .. وتدوس أحلامنا .. كل شىء يتحقق فيها تسقط قيمته .. حتى المادة نفسها .. حتى النقود .. تظل حلما جميلا حتى نكسبها وتنفقها فتسقط قيمتها وتصبح شيئا عاديا نرميه .. وتتخلص منه بالقمار .. !

أنا أكره الواقع .. وأحبك انت أكثر من الواقع .. وأكثر من الحياة .. وأحب حبك أكثر منك .. وأكثر من نفسى .. وأصعد به الى سماوات أجمل من نفسى ومن الدنيا .. سماوات مضـيئة فى داخلى .. تمنحنى السعادة .. والسلوى .. والعزاء ..

ياحبيبى يا أجمل مافى دنياى .. أنا أحبك الحب كله .. فلاتحبنى الحب الصغير الذى لايذكرنى الا حينما يجوع الجسد وتجوع العينان وتجوع اليدان .

أحبنى الحب الكبير .. الذى ليس له حل .. وليس فيه شبع .. وليست له وسائل ولا أوقات ..

الحب المستمر مثل الوجود .. الحاضر فى القلب مثل الخفقان .. المتصل كالأنفاس .. فى النوم واليقظة ..

لاتحاول أن تسعى الى لقاء مسروق لتشبع جسـدك وعينيك منى ..

ان هذا أجر زهيد لا أقبله .. لكل هذا الحب الذى أحبه لك ..

سوف أحزن كثيرا .. اذا حدث هذا .. سوف أتعذب ..
سوف تعذبنى وحدتى من جديد .. وحدتى فى حب لم يجد صداه ..

ياحبيبى يا أملى .. لاتخذلنى ..
دمت لى .. ولولدك .. ولزوجتك .. وسعدت فى كل أوقاتك ..

« نانى »

قرأت الخطاب مرة .. ومرتين .. وثلاثا .. وأربعا .. ولا أدرى كم مرة بعد هـذا كنت أقرأه .. ثم أضـعه الى جوارى ثم أعود فأقرأه ..

وكأنى أجرى وألهث فى طريق ليس له آخر .. أسمع صوتها يرز حولى .. ولا أجدها .. مثل الروح تملأنى ولا أراها ..

مثل روحى أنا ..
قريبة .. ومستحيلة ..



— ١٠ —

منذ شهر وأنا أعمل فى ورشة السيارات التى فتحتها .. كل يوم من الصباح الى المساء ..

أشعر بلذة من الانهماك فى عملى .. وأشعر بسعادة لأنه عملى .. أوظف فيه خبرتى وذكائى ومجهودى دون وساطة أحد .. أنا والآلة نقف وجها لوجه .. أفكها .. وأضبطها .. وأحكمها .. وقد تطورت العلاقة بيننا الى صداقة فأنا أصادقها كأنها آدمى له قلب وأحشاء ولحم ودم ..

تمنيت اليوم وأنا راكع تحت احدى العربات لو أنى استطعت أن أفك نفسى وأعيد تركيبها ..

تمنيت لو أنها طاوعتنى ..

ان الحديد يطاوعنى ولكن قلبى لايطاوعنى ..

أنا أبث عقلى فى الآلة فتتحرك .. وتنتظم .. ولكنى عاجز عن أن أبث عقلى فى عاطفتى ..

أشواقى تحرقنى .. صوتها يرن فى أذنى على الدوام .. روحها تحكمنى وتسلبنى الارادة ..

ألتمس الهدوء لنفسى فلا أجده .. كيف أنساها ؟..كيف أروض نفسى على الحياة بجوارها دون أن أطلبها .. كيف أطفىء ضرام الرغبة .. ولهب الحنين .. وعقلى .. حتى عقلى يشتهيها .. !

انها تجد الحصانة منى فى حبها لى .. فمالى أنا لا أجد حصانة

منها فى حبى .. ؟!

حاولت أن أحمل نفسى على هذه القداسة التى أستغنى بها عن لذات الحواس .. ولكنى لم أستطع .. غلبتنى بشريتى .. !

احتقرت نفسى ..

كنت أذهب أكثر من مرة الى التليفون .. ثم أعود أقف أمامه فى خوف وتردد .. أمد يدى ثم أردها ..

وأحيانا كنت أرفع السماعة وأدير القرص على رقم أو اثنين ثم لا أجد الشجاعة لأستمر فأضع السماعة من جديد .. وكنت أجد فى ادارة الأرقام لذة لمجرد أنها تنتمى اليها .. وكان اسمها على لسان زوجتى يحركنى .. كأنه كائن حى ..

وكانت الموسيقى تعذبنى .. تذكرنى بها .. بتقاطيعها .. بعودها النحيل .. ومشيتها المنسجمة ..

فكرت كثيرا فى خطابها الأخير .. وفى كلماتها ..

كيف صعدت الى هذا الصفاء المعنوى .. ؟ ما الذى شدها الى فوق ؟ .. العذاب ؟! .. المستحيل ؟!!

حاولت الخلاص مثلها فلم أستطع .. كان الواقع يشـدنى .. ودنيا الحواس تجذبنى .. وتبدو لى أكثر اقناعا ..

كانت بيننا مسافة انسانية .. هى العذاب الذى تعذبته .. !

***

سافرت الى الاسكندرية لأغرق همومى فى صخب المصيف .. ولكن الأمر لم يتغير كثيرا ..

كان الصخب يطفو على سطح وجودى .. والحوادث تجرى حولى كأنها على شاشة .. معزولة عن نفسى .. لا أتعاطف معها الا مجاملة .. دون أن أمتزج بشىء فيها بالقلب ..

قابلت الأستاذة فاطمة المحامية .. وكانت تمشى وحدها باعياء .. نحيلة شاحبة تحت عينيها غضون سود ..

لم أعرفها فى البداية حتى سلمت على .. فأخذت أدور بعينى فى جسمها باحثا عن الاستدارة الجميلة التى كنت أراها مرسومة تحت الفستان .. والصدر الرجراج الشهى الذى كان بكظ من فتحة ثوبها ..

كانت تبدو كجذع نخلة سقطت ثمارها .. !

طلبت منى أن أوصلها للفندق لأنها متعبة .. والمغص عاودها ..

ذهبت معها الى غرفتها .. وطلبت الطبيب ..

تذكرت الليالى التى قضيناها سويا .. وأنا أستمع الى صوتها المبلل .. تذكرتها كأنما أتذكر سرابا .. !

ــ كيف حالك ياحلمى ؟ .. يخيل الىّ أن سنوات مضت دون أن أراك ..

ــ نعم .. سنوات ..

ــ تبدو مهموما .. ليست هذه عادتك ..

ــ هموم الحياة ..

ولم أشأ أن أخبرها بشىء من هموم الحياة .. ولكنها قالت فى فضول :

ــ لم أكن أعتقد أن الهموم تستطيع أن تنالك .. كنت تبدو لى دائما رجلا قويا ..

ــ ان الانسان لايستطيع أن يعيش الى الأبد قويا .. أليس كذلك ؟!

ــ ماذا تعنى .. ؟!

ــ أنت لايبدو الآن أنك قوية كما كنت زمان ..

ــ أنا .. ؟!

واكتست عيناها بالحزن وأردفت فى نبرة كسيرة :

ــ أنا لم أكن أبدا قوية .. أنا كنت دائما أقتل نفسى .. طول عمرى وأنا أقتل نفسى .. لم أجد أحدا ينقذنى .. !

ــ لقد قتلت كل من حاولوا انقاذك يافاطمة .. أنت تعلمين جيدا كيف كانت حياتك ..

ــ نعم أعلم ..

وسكتت ثم أردفت فى يأس :

ــ لا فائدة .. لم يعد هناك فائدة ..

ــ لاداعى لكل هذا اليأس .. ان الانسان يستطيع أن يبدأ من جديد .

ــ أتظن هذا .. ؟!

ــ أكيد ..

وفى الحق لم أكن متأكدا ..

ــ أشكرك على هذا التشجيع ..

وأردفت بعد لحظة :

ـ ماذا كنت تقول حينما كنت تتذكرني ياحلمى .. امرأة سيئة.. أليس كذلك ؟ . لاتجاملنى أرجوك .. قل الحقيقة .. انهم جميعا كانوا يقولون عنى امرأة سيئة ..

ولم أقل لها أنى لم أتذكرها الا اليوم .. وانما قلت مجاملا :

ـ كنت أتذكر اللحظات الجميلة التى عشناها معا ..

ـ شكرا .. يالك من ولد رقيق جميل .. كم كنت أحبك .. ؟!

وقلت لها باهتمام :

ـ قولى الحقيقة يافاطمة . هل كنت تحبينى ؟ .. لقد فات أوان الكذب

وأجابت فى ملل :

ـ ياولدى الصغير .. أنا لم أحب أحدا .. ولم يحبنى أحد .. لايوجد رجل فى الدنيا أهل للحب .. أنت تحلم بأشياء لا وجود لها ..

ـ ألا تشعرين بالشقاء وأنت تقولين هذا الكلام .. ؟!

ـ دعك من التفلسف .. وقل لى .. هل أحببت أنت .. ؟!

ـ نعم أحببت ..

ـ ومن هى تلك الساذجة التى خدعتها ياترى ؟ ..

ـ أنا لم أخدع أحدا ..

ـ اذن فقد خدعت نفسك ..

ـ وما الذى يدعونى لأن أخدع نفسى ؟! ..

ـ لتخلق قصة وهمية تجمل بها حياتك .. أليس هذا هو الحب .. ؟!

ـ ان الحب هو الذى خلقنى .. ولست أنا الذى خلقته .. أنا لا أستطيع أن أخلق حبا ..

ـ هذه أشعار .. ان الواقع غير هذا ..

ـ وماهو الواقع عندك .. ؟

ـ الحب فى الواقع هو العذر الذى نلجأ اليه لنقضى وقتا طيبا فى الفراش .. انه الكلمات المشهية التى نقولها لبعض لنقبل على الأكل بنفس مفتوحة ونصنع لأنفسنا جوا من الحماس ننسى به الوقت ..

ـ لسنا فى حاجة لأعذار لنجتمع فى الفراش .. ان الغريزة تعتذر بالنيابة عنا .. وهى تتكفل بخلق الحماس اللازم وأكثر ..

ـ لا مانع من أن نطلب مزيدا من البركة ..

ـ ان لقاء الفراش قد يتم على أحسن وجه ولا يحدث الحب .. وقد لايتم بالمرة .. ويقوم الحب بدونه ..

ـ هذا كلام فارغ .. !

وشعرت أن كلامى يضايقها .. فسكت .. ودخل الطبيب .. وفحصها .. وكما حدث فى المرة السابقة .. وقف يمصمص شفته فى استغراب .. ويقول انه لم يجد شيئا ذا بال .. وبما كان احتقانا أو بردا فى المعدة .. أو أى شىء تافه لايدعو للقلق .. ولكنها كانت تتلوى من الألم وتطلب حقنة مسكنة ..

وفتح حقيبته وأعطاها الحقنة .. واستعادت روحها .. ومرحها ، وقالت مداعبة :

ــ والآن احك لى عن حبك ياصغيرى .. فقد مضى على وقت لم أسمع نكتة ظريفة ..

ــ ان حبى ليس نكتة ..

ــ حسنا أخرج منديلك لتكفكف به الدموع .. واحكى لى عن تراجيديا غرامك ..

ــ ألا تستطيعين أن تتكلمى عن شىء دون أن تسخرى منه .. ألا تتصورين أنه من الممكن أن توجد حقيقة .. ولو على سبيل الصدفة ..

ــ أى حقيقة .. ان الدنيا كلها كذب فى كذب .. انها نكتة .. انها سخف لايحتمل .. !

ــ ومع هذا فيبدو أنك حريصة على التمتع بهذا السخف والاستزادة منه بكل طريقة ممكنة ..

ــ وهذا سخف آخر منى لم أستطع أن أقاومه .. !

ــ ألم يخطر بذهنك أن السخف قد لايكون فى الدنيا ؟ .. وانما قد يكون فى طريقة حياتك لهذه الدنيا ..

ــ هذا وعظ مسيحى جميل .. يبدو أن صاحبتك راهبة فى الفرنسسكان

ــ أنت أسوأ دعاية لآرائك ، فمن الواضح أنك لم تستطيعى أن تبلغى بهذه الآراء أى راحة أو سعادة .. وهذا أنت بعد ثلاثين

سنة .. وحيدة لا رجل .. ولا زوج .. ولا ولد .. ولا بيت .. ولا حتى صديق .. وحيدة مريضة فى فندق مهجور وفى بلد لاتعرفين فيه أحدا .. هل هناك فشل أكثر من هذا لك ولآرائك ؟.. هل يمكن أن يعاقب انسان على آثامه بأكثر من هذا .. ؟

ويبدو أن كلامى كان قاسيا لأنها سكتت ، وشحب وجهها .. وظهر عليها الحقد والمرارة واليأس ...

وظلت تصارع ضعفها لحظة ثم انهارت فجأة تبكى .. وتشد شعرها ..

ـ حلمى .. حرام عليك .. لا تقتلنى.. أنا مسكينة.. مسكينة.. أنا فى حاجة الى العطف والحنان ..

ـ لن تجدى العطف والحنان الا اذا أعطيت العطف والحنان ..

ـ أنا غير قادرة على أن أعطى أحدا شيئا .. أنا لا أملك عطفا .. ولا أملك حنانا .. أنا مسكينة .. مسكينة ..

وظلت تردد كلمة .. مسكينة .. مسكينة .. مدة طويلة حتى استراحت وهدأت فمسحت دموعها ثم قالت فى صوت ضعيف هامس :

ـ حلمى أنت لاتعرف عنى شيئا ..

ـ أنا أعرف مايكفينى ..

ـ أبدا ..

وسكتت لحظة .. ثم عادت تبكى فى سكون .. وقالت فى وجل وتردد :

ـ سوف أقول لك حقيقة لاتعلمها .. هل تعرف سر هذه النوبات من المغص التى تنتابنى .. ؟!

وسكتت .. وترددت ثم قالت بصوت مضطرب :

ـ انى أتحايل بها لأحصل على حقن المورفين .. أنا أدمن المورفين من زمن طويل ..

وكانت هذه الحقيقة مفاجأة بالنسبة لى تماما ..

وأحسست بالاشفاق الشديد نحوها ..

ـ يجب أن تدخلى مستشفى لتعالجى نفسك من هذا الادمان المدمر ..

ـ لا فائدة .. سوف أعالج الادمان .. ولكن كيف أعالج حياتى ؟ .. كيف أحتملها بدون أن أتجرع السم كل يوم ؟ .. كيف أعيش بلا حب ، بلا هدف ، بلا ايمان ، بلا معنى ، بلا اله .. كيف أحتمل حياة كلها عبث فى عبث ؟! .. لماذا لاتتكلم .. ؟!

ـ ماذا أستطيع أن أقول لامرأة لاتشعر أن فى عالمها الها .. كيف أدخل لها النور .. وقد أغلقت كل النوافذ ..

ـ أنا لا أريد الها .. أنا أريد رجلا يحبنى وأحبه .. رجلا يحبنى بكل قلبه .. وعادت تبكى ..

***

طول الطريق أثناء عودتى من الاسكندرية كنت أفكر فى نانى .. عصفور جميل سجين .. بين جدران أربعة من المستحيل . لايملك حريته ولا خبزه ولا جسمه .. يغنى .. لأن لمسة من الحب لمست

روحه ففاضت بالحنان والجمال .. وأحبت كل شيء .. حتى الألم وجدت له مبررا وعذرا .. !

وفاطمة التي تمرح طليقة كما تشتهي تشرب السم لتموت ببطء يائسة وحيدة تعيسة .. بدون حب ..

ياويلنا بدون حب .. !

وأحسست بالشوق .. بالشوق المبهم الى الصعود حيث توجد حبيبتي في ملكوتها وجمالها ..

وكان الشوق يسحقني .. يذيبني ..

وكان أول شيء فعلته حينما وصلت أني جريت نحو التليفون وأغلقت الباب .. كطفل يريد أن يأكل قطعة من الحلوى وحده ..!

ورفعت السماعة وأدرت القرص على أرقامها الخمسة .. ثم جبنت فوضعتها وأنا أرتجف .. ثم عدت أحملق في الآلة السوداء .. والمشاعر تتخطفني .. ولبثت فترة .. ثم عدت فأدرت الرقم .. وسمعت صوتها رائقا .. صافيا .. حلوا ..

ــ نانى .. أريد أن أراك ..

ولبثت صامتة لحظة .. ثم أجابت في صوت متهدج يذوب حبا :

ــ ياحبيبى .. انى أراك .. أراك أنت وحدك .. ولا أرى شيئا سواك .. أرى بك الدنيا كلها .. أراها في ضوئك ..

ــ نانى .. أنا أريدك ..

ــ ياحبيبى .. لاتخذلنى ..

ــ انى أحبك .. أحبك ..

ــ ان حبك جعلنى ملكة .. فلاتدعه يجعلنى جارية ..

ــ أنا أحبك ..

ــ أنا أعبدك .. أنت روحى .. ارادتى .. أملى .. كن ارادتى الكبيرة ولا تكن ارادتى الصغيرة

ــ أنت تحبيننى كما أحبك ..

ــ أنا أحبك أكثر مما تحبنى...

وسكتت لتلهث..وتخطف أنفاسها كأنها كانت تجرى شوطا طويلا

وأحسست بلهثاتها تنبع من بعيد .. ومن قريب .. من قريب جدا .. من روحى ..

وأحسست أني صغير جدا الى جوارها ولم أعرف كيف أعتذر

ــ ساعدينى لأحبك كما تحبيننى ياملكتى .. لن أجعلك جارية أبدا .. سوف أكون ارادتك .. ارادتك الكبرى .. وأجمل أحلامك

ــ ياحبى .. ياحبى .. ياحبى ..

وظللت برهة ساكنا .. لا أحس بوجودى .. ثم بدأت أفيق ..

وذهبت الى عملى .. وظللت أشتغل الى وقت متأخر من الليل .. وعدت مرهقا .. لأتمدد فى فراشى مفتوح العينين فى الظلام .. أتذكرها وأتذكر كلماتها .. كلمة .. كلمة .. وألتمس منها القداسة .. والنجاة .. وأتوسل بها الى الجزء الأسمى من وجودى .. وأصعد اليها .. على درجات المستحيل درجة .. درجة .. يأخذ حبها بيدى .. الى حيث أجمل لذاتنا .. !

تمت

اشترك فى روايات الهلال

(أسعار الاشتراك على الصفحة الثانية)

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

اللاذقيــــية :	السيد نخلة سكاف
جــــــدة :	السيد هاشم بن على العامس ص . ب ٤٩٣
البحــــرين :	السيد مؤيد احمد المؤيد صندوق البريد رقم ٢١
البــــرازيل :	Sr. Miguel Maccul Cury. R. 25 de Março, 994. Caixa Postal 7406. Sao Paulo. BRAZIL
ســـنغافورة :	Ahmed Bin Mohammed Bin Samit Almaktab Attijari Assharg!. P.O. Box 2205 SINGAPORE
انجــــلترا :	The Aravic Publications Distribution Bureau. 7, Bishopthorpe Road London S.E. 26. ENGLAND

